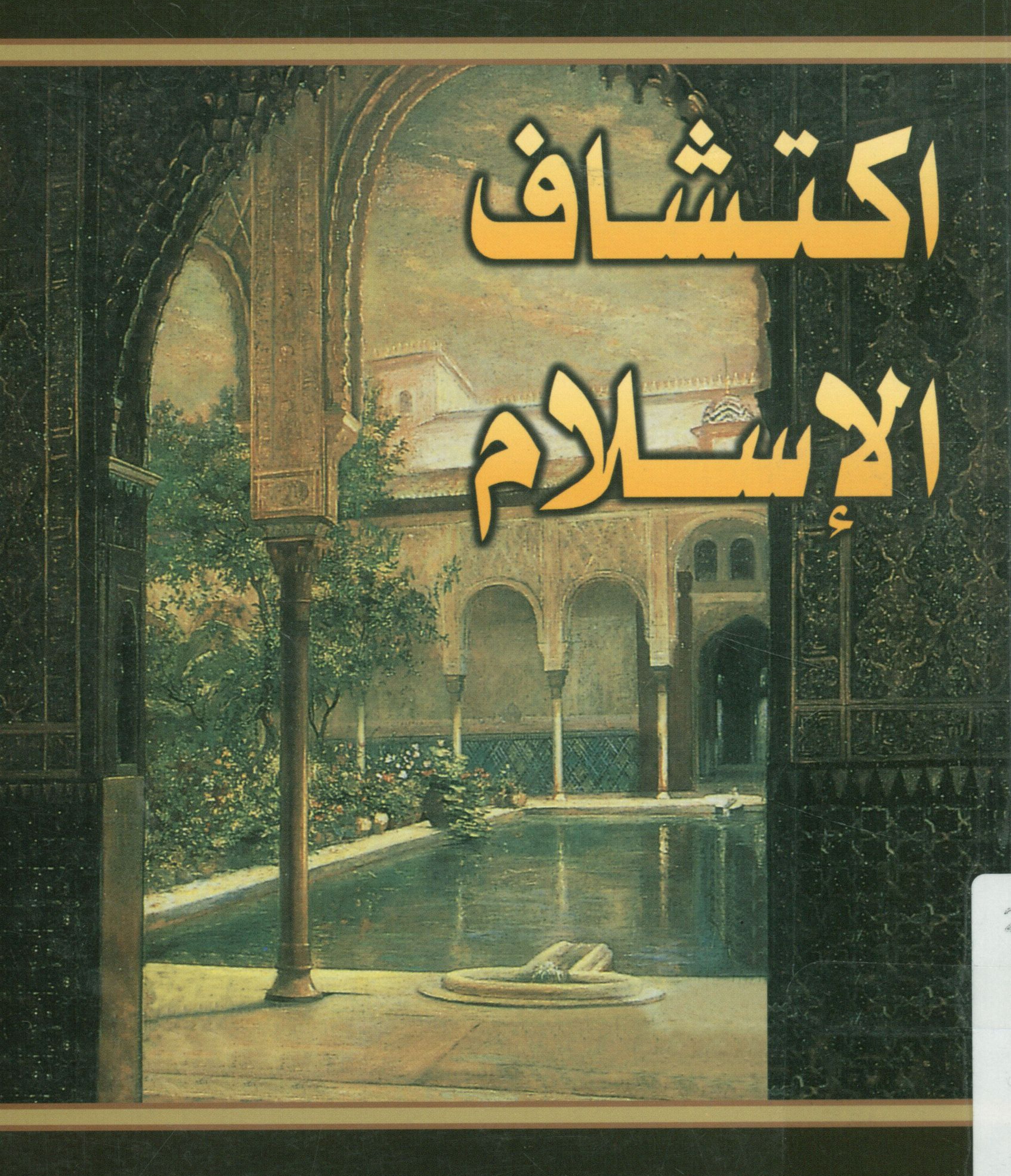
روجيه دوباسكييه



# اكتشاف الإسلام

ترجمة: د. راتب شعبو

# اكتشاف الإسلام

* اكتشاف الإسلام

* روجيه دوباسكييه

* الطبعة الأولى عام 2006



* دار الرأي للنشـر والتوزيـع
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: 9036
هاتـف ، فاكـس: 6129737

توزيع

دار الحصاد ـ دمشق
تليفاكس: 2126326

دار السوسن ـ دمشق
تليفاكس: 6665696

روجيه دوباسكييه

# اكتشاف الإسلام

ترجمة: راتب شعبو

# مقدمة

انشغل الغرب في هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين بالعالم الإسلامي واحتار في أمره. فقد حافظ العالم الإسلامي، رغم الثورات التي أنجزتها الحضارة المعاصرة، على القيم التقليدية التي اعتبرها الغرب بالية، كما أنه لايزال، بطرق متعددة، عالم إيمان وابتهال.

ولاتزال الغالبية العظمى من المسلمين في أوروبا نفسها، حيث بلغ تعدادهم حوالي خمسة عشر مليون مسلم في كل القارة (بما فيها روسيا غرب الأورال)، تحافظ على إيمانها. ولايزال الإله ـ الله ـ يمثل الحقيقة بالنسبة لهم، الحقيقة المطلقة. والكثير منهم يؤدي فروض الصلاة على نحو منتظم.

لايمكننا أن ننكر، فوق كل شيء، أن الإسلام لا يني يزدهر في وقت تنحدر فيه كل الأديان الكبيرة الأخرى ـ أو على الأقل تجد نفسها في موقع الدفاع ـ وتقدم أفريقيا أوضح الأمثلة على هذا.

إن قوة الإسلام هذه، مقارنة بالضعف المتزايد للمسيحية، تعتبر من الحقائق الكبرى في التاريخ المعاصر. وقد حاولتْ دراسات سوسيولوجية واستشراقية كثيرة تحليل هذه الحقيقة وأشارت إلى عدد من نزوعاتها. غير أن هذا القرن الذي نبذت حضارته كل الأفكار الماورائية، قد فشل في

فهم حيوية لا بل توهج دينٍ هو في الأساس ماورائي، ذلك لأن وسائل تقصي هذا القرن عينها لاتعدو كونها شكلاً متطوراً من الفكر العلماني. والحقيقة أن الإسلام هو، في الأصل، المقدس عينه.

تشير الملاحظات الآنفة الذكر إلى هدف هذا الكتاب. وعلى اعتبار أنه كُتب بطلب وتحت إشراف أصدقاء مسلمين أرادوا شرح رسالة الإسلام بشكل يُسهّل عبوره إلى القارئ ذي الخلفية أو الثقافة الأوروبية؛ فإن هذا الكتاب ينسجم مع نظرة القارئ بصفته مؤمناً وليس بصفته (مراقباً) أو (خبيراً) يكتفي بتفحص الأمر من الخارج. وعلى هذا فالقارئ مدعو لاكتشاف عالم مازال محكوماً بالمقدس، هذا المبدأ الغريب أساساً عن الحضارة المعاصرة التي، في رغبتها (نزع السحر) عن كل شيء، وفي تجاهلها البعد الثالث لهذا العالم، إنما تسببت في حرمانه من القوى فوق الطبيعية.

قد يكون من الجدير الإشارة إلى أن مديح إخلاص أولئك الذين اعتقدت المسيحية، في القرون السالفة، أنها يمكن أن تدعوهم (غير مخلصين)، لايعني بحال من الأحوال انتقاداً للدين المسيحي. ففي عصر يتوجب على كل الأديان السماوية فيه أن تناضل ضد روح العدم، عدوها المشترك؛ يصبح كل تنافس بينها بريئاً من المعنى.

كل من لايزال يدرك وجود حقيقة منقذة سرمدية فوق هذا العالم الفاني، لايستطيع النظر إلى الإسلام بلا مبالاة. إن كشف الإسلام كما هو يعني أن نجد البرهان على أن هذه الحقيقة يمكن أن تُعاش على المستويين الفردي والجماعي كلياً ودونما مواربة.

# الفصل الأول

# تحدي العصر

يبدو أن لا شيء على الأرض يمكنه النجاة من الأزمة التي تعصف بعالمنا المعاصر. لايكفي الحديث عن أزمة حضارة، ذلك أن الظاهرة اتخذت أبعاداً كونية والظلام الوشيك يقترب أكثر فأكثر وثمة شعور بالقلق لا يني يتسع.

لقد جاء الإسلام لكي يساعد الإنسان على عبور هذه الحقبة الأخيرة من التاريخ دون أن يخسر نفسه. إن خاتمة الرسالات السماوية تزودنا بالوسائل الناجعة لمقاومة الفوضى الراهنة ولإعادة الاستقرار والوضوح داخل أرواحنا ـ كما لإعادة التناسق في العلاقات البشرية ـ ولتحقيق المصير الأعلى الذي دعانا إليه الخالق.

فالإسلام يخاطب الإنسان وقد فهمه فهماً عميقاً ودقيقاً محدِّداً له موقعه في نظام الخلق وأمام الله. أما الفكر المعاصر فإنه، بالمقابل، لايمتلك أنتروبولوجيا واضحة وتحوز على قبول عام. فقد جمعت هذه الأنتروبولوجيا عدداً هائلاً من الحقائق، إلا أن تشوش وتنوع هذه الحقائق يكشف العجز عن إعطاء فهم متماسك للشرط البشري. ما من

حضارة أخرى سوى الحضارة الغربية، تجاهلت بشكل تام ومنهجي الأسئلة التالية: لماذا ولدنا؟ لماذا نعيش؟ لماذا حقّ علينا الموت؟

تلك هي مفارقة ثقافتنا التي ترغب، في المقام الأول أن تكون «إنسانية»، أو بكلام آخر، أن تجعل الإنسان معيار وغاية كل الأشياء، في حين أنها دمرت حتى مفهوم الإنسان. فالإنسان الذي تعتبره النظرية النشوئية قرداً محسَّناً، خسر بهذا أي تماسك تركته له فلسفة العبث، مهما يكن هذا التماسك طفيفاً. وهكذا فإن الكائن البشري صار أشبه بدمية تفككها آليةٌ من صنع الإنسان، الإنسان نفسه الذي لم يعد يستطيع السيطرة على حركتها العشوائية والمتسارعة.

فقدت الحياة معناها حين نادى بها الغرب على أنها عبث. صحيح أن الإنسان حاز على عدد كبير من الإمكانات المادية والمزايا التي لم تكن تحلم بها الأجيال السابقة، لكن عندما نجهل معنى الإنسان ونجهل تطلعاته العميقة كما نحن الآن، فما من معجزة مادية يمكن أن تمنع الإنسان من الغرق في يأسه الخاص.

ومع ذلك فإن الحضارة المعاصرة تقدم نفسها على أنها حققت السعادة للجنس البشري. الثورة الفرنسية تبنت إعلان حقوق الإنسان، والدستور الأمريكي يزعم السعي وراء سعادة كل مواطن. فقد أجاز القرن التاسع عشر في كل البلدان الغربية، وحتى في غيرها، فكرة التقدم العظيمة التي تجعل العصر الذهبي أمامنا وليس وراءنا.

وقد بدا لبعض الوقت أن الوقائع تدعم هذا الاعتقاد. فقد تحسنت الشروط المادية للشرائح الدنيا في المجتمع الغربي، وضُمنت الحرية الفردية للجميع، وشعر الإنسان أن العِلْمَ جعله أدرى، بما لايقاس، من أعظم

حكماء الأجيال الماضية، كما وضعت التكنولوجيا في يد الإنسان أدوات ذات طاقة لم يحلم بها من قبل.

من ناحية أخرى، تبشر الحضارة المعاصرة الأفراد بأنهم قادرون على «تحقيق الذات» بمجرد أن يتخلصوا من أي كابح ويتّبعوا ميولهم الخاصة، وذلك من خلال النظريات السيكولوجية التي تزعم أنها حددت أخيراً مركز ثقل الكائن البشري ـ على مستوى الفعالية الجنسية. الأمر الذي أعطى الكثير من الذرائع لقمع الأخلاق الموروثة عن الماضي واعتبارها بالتالي كتلة من الأضرار.

وبهذه الطريقة فإن الإنسان يؤمن أنه بلغ الرشد، الأمر الذي يتضمن الزعم أن أسلافه في القرون الماضية كانوا صبيانيين. ولاتفتقر الحضارة المعاصرة لفلاسفة أو حتى لاهوتيين يؤكدون للإنسان هذا الاعتقاد.

مع هذا فإن الوقائع عينها فجرّت أخيراً هذه النظريات ـ فقد شكلت الحرب العالمية الأولى والكوارث التي استجرتها، نكسة كبيرة للنزعة التفاؤلية لرسل العصر الذهبي الجديد. بيد أن هذه النكسة لم تمنعهم، ما أن حطت الحرب أوزارها، من رفع عقيرتهم بنبوءات أكثر فصاحة عن مجيء حقبة من السلام والعدل والسعادة، كما لو أن التراجيديا الفظيعة وملايين الضحايا التي تسببت بها، لم تكن أكثر من انحراف عابر.

كان من المفترض في الإنسانية أن تكشف في الحرب العالمية الثانية ـ هذه التراجيديا التي تفوق الأولى رعباً ـ أوهام ومخاطر الايديولوجيات التقدمية والإلحادية التي تبشر بتحقيق السعادة بوسائل محض دنيوية وكمية ومادية. لكن الإنسان سرّع عملية العلمنة بدل أن يُبصر الطبيعة الخادعة لهذه الأفكار ويعود إلى قيم أكثر روحية وأصالة. وعندما أخفقت الوعود بالسعادة، فإن إيديولوجيي النظام لم يستنتجوا قطعاً أنهم كانوا

يقفون على أرض زائفة، بل شنّوا، بدل ذلك، حملة على آخر ما تبقى من النظام القديم والأفكار التقليدية يدينونها ويعتبرونها عقبات كأداء في طريق التقدم تجب إزالتها بأقصى سرعة.

ولم تكن الاضطرابات الاجتماعية سوى أحد مظاهر هذا الميل. فقد تزامنت مع التهديم الروحي والأخلاقي الذي ألغى، ظاهرياً، الروح «التسلطية» و«المستبقات» التي تقف في طريق اكتمال تحرر الإنسان وبالتالي طريق سعادته.

إن الواقع، كما يبدو خصوصاً لدى الشباب المنغمسين في أفكار ضد تسلطية كهذه، ذو مغزى: فوفقاً لتقارير متسقة، لاينفك عدد المرضى الذهنيين ومدمني المخدرات يتزايد، بالتوازي مع الطريق الذي يفضي في الواقع إلى نقيض الحرية بالضبط، أقصد طريق الخضوع الأعمى للقادة والايديولوجيات.

لقد انتهت هذه الحضارة التي تسمي نفسها «إنسانية»، إلى نظام يحط من قدر الإنسان ويخدعه، كي تصل في نهاية المطاف إلى تدميره. إنها تحط من قدر الإنسان لأنها تختزله إلى الوظائف الكمية والمادية على اعتباره مجرد منتج ومستهلك؛ وتخدعه لأنها تجعله يعتقد أنه يوماً ما سيصل، بفضل التقدم والتطور والعلم والتنظيم الاجتماعي الأفضل والتحرر من «المستبقات» القديمة والكوابح الموروثة من الماضي، إلى حالة من النعيم والانتصار على المعاناة ـ رغم حقيقة أن المعاناة متأصلة جوهرياً في الشرط البشري ـ وأخيراً فإنها تدمره بإفساده وجعله منقسماً على نفسه وتفريغ حياته من الأمل والمعنى.

علاوة على ذلك فإن الشعور بأن نظامَ الأشياء القائم ـ إذا كان ثمة معنى للكلام عن نظام وسط كل هذه الفوضى ـ خدعةٌ كبيرةٌ ينتشر

باطراد ظاهر؛ كما تجد الايديولوجيات الحديثة نفسها محشورة في الزاوية أكثر فأكثر بسبب تفشي روح الرفض والانشقاق والعدمية. والواقع أن هذه الايديولوجيات بما فيها الماركسية، تنتهي دوماً إلى فقدان المصداقية، ذلك لأنها عاجزة عن الرد على أهم أسئلة حياتنا: ما معنى حياتنا، وما السبب الكامن خلف وجودنا هنا على الأرض؟ وفي النهاية فإن هذه الايديولوجيا تصبح بحكم الضرورة عقيمة وبلا جدوى لأنها تتجاهل أن الإنسان محدد أساساً بالمطلق، وأنه في أعماق روحه، بوعي منه أو بلا وعي، يبحث عن المطلق وليس عن أي شيء آخر.

لايمكن للشرط البشري أن يجد تبريره وازدهاره الحقيقي في المجال السطحي والدنيوي، ذلك لأنه يتضمن صبوةً جوهريةً وأساسية نحو الماورائي. فالإنسان، بالتميز عن بقية المخلوقات، يشعر بحاجة عميقة لأن يتجاوز نفسه بحثاً عن المطلق، وهو الوحيد بين المخلوقات الذي يستطيع أن يستوعب المطلق ذهنياً. ولهذا فإن كل الأشياء النسبية التي تقدم له بهذا الإغداق تتركه يتضور جوعاً أو تترك في فمه طعماً مراً.

ومما له دلالة عميقة أن «الثقافة المضادة» متطورة للغاية في البلدان المصنَّعة، حيث مستوى المعيشة مرتفع وحيث الحاجات المادية في متناول الجميع. هذا هو بيت القصيد: إن الحضارة المعاصرة غير مقبولة من جانب الإنسان لأنها، عندما تقدم له كل شيء باستثناء الشيء الأساسي، تبدو له مجردة من المعنى. لم يحصل الإنسان في تاريخه على وسائل لهو كما هو الحال الآن، ولم يكن شعوره بالملل قوياً كما هو حاله الآن. لقد فشلت كل الإنجازات الاستثنائية للعلم والتكنولوجيا سواء التلفزيون أو «الفتوحات الفضائية» أو تقدم الطب، في تزويد الإنسان بعلاج شافٍ من هذا السأم. صحيح أن الإنسان وسط فرط البِدَع التقنية هذا منغمس في اللذائذ ومشتت

وذاهل، لكنه يفشل في العثور على هدوء الروح الذي يأتي من تحقيق المصير الأعلى الذي خُلِقَ من أجله في هذا العالم.

إن أولئك الموهوبين قدراً ما من التأمل يدركون أكثر فأكثر أن البشرية، في الشروط الحمقاء للحياة المعاصرة، تندفع نحو الهاوية. وكثرٌ هم الذين يبحثون عن خلاصهم وراء حدود العالم الغربي الذي رسخ الحضارة سيئة السمعة. وهذه ردة فعل مفهومة تماماً. تراهم يتجهون إلى أشكال مختلفة من التصوف الشرقي كاليوغا أو السحر، لكن غالبيتهم تتجاهل الإسلام الذي لو اختاروه لساعدهم في اعطاء حياتهم شعوراً بالمعنى يستجيب لأكثر آمالهم عمقاً.

الإسلام ليس غربياً لكنه مع ذلك ليس شرقياً بحصر المعنى. فهو، رغم أنه غريب عن العالم المعاصر إلا أنه مع ذلك الأكثر تكيّفاً، بين كل التقاليد المقدسة، مع شروط الدورة الكونية في المرحلة الراهنة من انحطاطها. فهو بسيط وواضح ويشتمل في الوقت نفسه على كنوز من الحكمة الصوفية، والماورائية حكمة غذت أجيالاً وأجيالاً من المتصوفين والأولياء.

إن الإسلام ببعديه الشاقولي والأفقي، قادر أن يصالح الإنسان مع العالم المحيط به من جهة ومع الخالق من جهة أخرى. فهو دين كوني بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. لم يعرف الغرب الإسلام حق المعرفة، لا الغرب المسيحي، ولا غير المسيحي. فالمسيحيون لم يكفّوا منذ بروز الإسلام على الساحة العالمية، عن الإساءة إليه وشتمه لكي يجدوا المبررات الكافية لشن الحرب عليه. وقد تعرض الإسلام إلى تشويهات غرائبية لايزال لها آثارها في الذهن الأوربي؛ فحتى اليوم يوجد الكثير من الغربيين لايعني الإسلام بالنسبة لهم سوى أفكار ثلاث: التعصب، والجبرية، وتعدد

الزوجات. لاشك أن هناك جمهوراً أكثر ثقافة يحملون أفكاراً أقل تشوهاً عن الإسلام لكن القلّة القليلة يعرفون أن كلمة **إسلام** تعني «الخضوع لله» لا أكثر ولا أقل. وأحد أعراض هذا الجهل أن **الله**، في خيال معظم الأوروبيين، يعني رب المسلمين وليس إله المسيحيين واليهود؛ فهم يندهشون لسماعك تقول، وأنت تأخذ على عاتقك مهمة شرح الأمور لهم، أن **الله** هو الإله وأن العرب المسيحيين لايملكون اسماً آخر لإلههم سوى **الله**.

بالطبع كان الإسلام موضوع دراسات من قبل المستشرقين الغربيين، وقد نشر هؤلاء على مدى القرنين الماضيين أدباً ينمّ عن ثقافة واسعة في الموضوع. مع ذلك، ومهما تكن القيمة التي بلغتها أعمالهم، وخصوصاً في مجالات التاريخ والفيلولوجيا (فقه اللغة)، فإنهم لم يساهموا إلا بالقليل في جعل الإسلام مفهوماً أكثر لدى الوسط المسيحي أو ما بعد المسيحي، وذلك ببساطة لأنهم فشلوا في جذب الانتباه خارج دوائرهم الأكاديمية المتخصصة. على المرء أن يسلّم أيضاً أن الدراسات الشرقية في الغرب لم تكن دائماً مدفوعة بروح علمية صرفة لامنحازة، ومن الصعب على المرء أن ينكر أن ثمة مستعربين وباحثين في الدين الإسلامي، عملوا بنيّة التقليل من قيمة الإسلام وأتباعه. كان هذا الميل واضحاً على نحو خاص - ولأسباب جلية - في ذروة الامبراطوريات الاستعمارية لكنْ سيكون من باب المبالغة أن نزعم أن ذلك الميل اختفى دون أن يترك أثراً. هذه بعض الأسباب التي تفسر سوء التقدير الذي يلقاه الإسلام في الغرب حتى اليوم، علماً أن الغرب يشهد، وهذا مدعاة للحيرة، نمواً واضحاً في الاهتمام والتعاطف مع الأديان الآسيوية كالبوذية والهندوسية منذ ما ينوف عن القرن، مع أن الإسلام قريب من المسيحية واليهودية على اعتباره يتدفق من النبع الإبراهيمي نفسه. رغم ذلك، ظهر منذ سنوات عديدة أن

الشروط الخارجية، وخصوصاً تزايد أهمية الأقطار العربية الإسلامية في الشؤون الاقتصادية السياسية الكبرى للعالم، أثارت الاهتمام الزائد بالإسلام في الغرب، الأمر الذي أدى - لدى البعض - إلى اكتشاف آفاق جديدة لم تكن متوقّعة حتى حينه.

يعبّر الإسلام، الذي يعني «الخضوع لله»، عن فكرة كونية يجدها المرء بشكل أو بآخر في التقاليد المقدسة الأخرى؛ فكل دين حقيقي ينسجم بالضرورة مع إرادة المطلق الإلهي. وعلى كل حال، يمكن تمييز الإسلام على أنه «الدين السرمدي»، فهو عندما يؤسس نفسه على مبدأ الوحدة، وهو مبدأ سرمدي، فإنه لايأتي بجديد من الناحية الجوهرية، بل جاء ليعيد تأسيس الدين الأصلي وليؤكد على **الحقيقة** التي تكمن وراء الزمن.

وعلى اعتباره إعادة تأسيس وتأكيد، فإن الإسلام يشكل أيضاً توليفاً للوحي الكوني: إنه خلاصة الرسائل السابقة التي منّت بها السماء على البشر، فهو الرسالة التي تهب الإنسانَ قدرتَها المدهشة على صهر المؤمنين بها في بوتقة واحدة مهما تكن انتماءاتهم العرقية، محترمةً في الوقت عينه خصوصياتهم.

إن الإسلامَ، بما هو دين سرمدي، قديمٌ ومعاصرٌ في آن معاً. إنه قديم لأنه ينقل حقيقةً معروفة للناس في أبكر العصور، وهو معاصر في طرائقه التي تمكن الإنسان في العصر الراهن من أن يعيش هذه الحقيقة.

وتتجلى «عصرية» الإسلام أولاً في بساطة التعبير عن مبادئه العقيدية التي أولها وأهمها الشهادة، (الاعتراف بالإيمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله). ويتم التعبير عن هذه الشهادة بوحدة الإله كما جاءت إلى البشر عبر رسالة النبي محمد، بسلاسة يجعلها سهلة العبور إلى

الإنسان المعاصر الذي لايحتاج كي يصبح مسلماً إلى أن يقرّ «بأحجيات» مستعصية على ذهنه.

يقيناً أن الشهادة تتضمّن معانٍ ميتافيزيقية قد لا يدرك مغزاها العقل البشري أبداً، لكنها مع ذلك تمنح الإنسان اطمئناناً لامثيل له: إن المطلق الإلهي فتح معبراً له مع البشر عبر الرسالة النبوية. لقد وُصف الإسلام، عن حق، بأنه «دين الطمأنينة».

وهكذا فإن الشهادة هي رد الإسلام الأساسي على اللاأدرية البروميثية لعالم اليوم. فهي تقدم حجةً أساسية تتجاوز العمليات المنطقية للفكر البشري، لتؤكد على **الحقيقة** المطلقة المعتمدة عليها كل المخلوقات التي، بناءً على ذلك، لاتعدو كونها تعبيرات نسبية عن هذه الحقيقة. تبدأ الشهادة بالنفي «لا إله» ثم تمضي لتؤكد **الحقيقة** «إلا الله» فتضع الإنسان أمام الله بشكل يدعوه إلى التأمل ويتحدى التحليل في الوقت نفسه.

يرى البعض الشهادة برهاناً ساطعاً، ويراها البعض الآخر مبهمة ومحيِّرة. لكن سواء اعتنقها المرء متّبعاً قبساً من نور الهداية أو اتبعها عقب سياق من النضج الذهني، فإن الشهادة ليست مجرد تصريح يدعو الإنسان إلى سلوك نهج ذهني محدد، إنها تستغرق الكائن البشري بكلّيته.

إن الشهادة عندما تعلن الوجود المطلق وبالتالي الحصري لله، فإنها تتضمن الضرورة الأكيدة للاتساق معه والخضوع لإرادته، وهذا هو المعنى الدقيق لكلمة «إسلام»، ومن هذا يَشتق الشطر الثاني، الذي هو نتيجة منطقية حكيمة للشطر الأول، كلَّ معناه: محمد رسول الله: ليس ثمة سبيل لهذا الاتساق والخضوع أفضل من اتباع الطريق الذي يرسمه الرسول.

وليس عليك كي تسلك هذا الطريق سوى أن تقبل أولاً بالكتاب

الموحى: القرآن، وتلتزم بوصاياه، وأن لاتخالف تعاليم وسنّة الرجل الذي كان واسطة الوحي: محمد. أن تكون مسلماً يعني أن تخضع للإرادة الإلهية ولاشيء أكثر.

إن الاعتراف بالوجود المطلق لله، وبحرية المرء في الخضوع له يكفي لاستعادة مجمل معنى الحياة البشرية المبخوسة الحق على يد التشوش والجحود المعاصرين. وذلك لايتطلب ثمناً باهظاً بالمقابل. فتماماً كما الاعتراف الأساسي بالإيمان، أي الشهادة، أمر واضح وبسيط للغاية: كذلك هي عناصر الدين الإسلامي الأخرى فهي لاتتطلب جهداً ذهنياً شاقاً كي يدركها المرء ويقبل بها. أما من ناحية ممارسة الدين، فهي تبدو متعبة لأولئك المعادين لأي شكل من الانضباط، لكنها في الواقع سهلة ومرنة إلى درجة أنها ممكنة في كل ظروف الحياة، حتى في عصرنا، والواجبات المترتبة على المؤمن ليست إطلاقاً فوق طاقة أي كائن بشري يمتلك الحد الأدنى من الحماس. على العكس، فإن تأثير ممارسة الواجبات الدينية يظهر جلياً في الحفاظ على التوازن السليم للروح كما للجسد.

من الواضح، مع ذلك، أن هذا النوع من الشعائر الدينية، مهما تكن سهلة، تبدو ثقيلة على الكثيرين من معاصرينا، ذلك لأن نبذ أي نوع من الانضباط، وهو ما تشجعه النظريات «الضد ـ تسلطية» كالتحليل النفسي وغيره من الأفكار «الفلسفية» التي تجاري الموضة، من الملامح النوعية المميزة للعقل المعاصر. إن السجود الذي يقوم به المؤمن أثناء أدائه الصلاة والذي يعبر عن توق المتعبِّد للخضوع كلياً للسيادة الإلهية، أبعد ما يكون عن حركة «التحرر» والعلمنة التي لاتعترف، وفقاً لأحد شعاراتها الشهيرة، بأي «إله أو سيد» فوق الإنسان.

كما أن ممارسة الإسلام هي أيضاً ذكر لله الذي أعلن في القرآن

﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولاتكفرون﴾ (البقرة، ١٥٢). من الواضح أن هذا يدخل في صراع مباشر مع نمط الحياة المعاصرة الضائع في غمرةٍ لا معنى لها من النزاعات والهموم والآلام، والغافل عن الخالق بصورة عامة ومنهجية. الذِّكرُ الذي يغمر حياة المسلم، يبقيه على اتصال مع مركز الأشياء، في حين أن الغفلة تحيله إلى كائن هامشي خاضع للجانب الكمي الخارجي من العالم وللتسارع الكونيٌ الواضحِ جداً في هذه السنوات الأخيرة من القرن العشرين.

يقف الإنسان المعاصر المُعَلْمَن النمطي على طرفي نقيض مع المسلم في الخضوع لإرادة الله. فهو في عجزه عن قهر نفسه، وعجزه عن العبادة، وغرقه في سيل الإمكانات التي فتحتها له الحضارة الكمية التي تقدم له كل شيء ما خلا الشيء الذي لاغنى عنه، وتهمل الشيء الوحيد الذي يعطي للحياة معناها، يعيش في حالة من عدم الرضى لايجد لها علاجاً شافياً رغم كل المصادر المتنوعة واللامسبوقة التي في حوزته. وقد فاقم هذا العجز من حالة التمرد التي يعيشها الإنسان المعاصر ضد الشروط الراهنة، وخصوصاً ضد الآثار الأخيرة للنظام المعياري المجرّد من التقاليد الدينية، وبالتالي من الإله، وهكذا فقد أصبح الإنسان المعاصر **الإنسان المتمرد** الذي يرمز إلى القرن العشرين.

لقد ربط /كامو/ بعض القيم الأخلاقية والروحية بهذا الإنسان المتمرد. ومع ذلك فإن هذه القيم فارغة الآن من أي حذر قد ينبع من الماورائي أو من الإيمان الديني، ولاتستغرق وقتاً طويلاً قبل أن تتقوّض وتتبخّر. ويمكن للمرء أن يؤكد ذلك بالنظر إلى (الثقافة ـ المضادة) التي تميل، وهي تدفع باتجاه عصر جديد، إلى تدمير كل شيء يمثّل نظاماً أخلاقياً واجتماعياً.

يمكن، بالطبع، تبرير (الثقافة ـ المضادة) بقدر ما قامت بنبذ الحضارة الكمية التي تختزل الإنسان إلى وظائفه كمنتج ومستهلك؛ وبالتالي التي تعجز عن إشباع أهم وأعمق تطلعاته. لكن في معظم الحالات، نجد الثقافة المضادة تسعى لاستغلال ردود الفعل الشرعية، وخصوصاً ردود فعل الشباب، وتحويلها إلى مهام إضافية للتدمير والهدم. وتنتهي بأن تخلق كائناً بشرياً متغيراتُهُ الوحيدة هي تلك المحكومة بغرائزه الجسدية والوظيفية.

إن الإنسان الساقط إلى هذا الدرك من العدمية هو أبعد ما يكون عن الإسلام. وبما أن هكذا إنسان قد نسي الإله فإن الإله قد نسيه بدوره. فالشرط البشري بالنسبة له فقد المعنى الحقيقي. لقد كف عن أن يكون إنساناً إلا بطريقة عَرَضية ومجزّأة.

إن الإنسان الذي بلغ هذه الدرجة المتطرفة من السياق المعاصر وضع نفسه، بمعنى ما، دون مرتبة الحيوانات، ذلك أن الأخيرة مقيّدة بالحدود السوية لأنواعها ولاتستطيع انتهاك حدودها الخاصة. ولهذا فإن الحيوانات تحتفظ ببراءةٍ ما، على خلاف الإنسان الذي يمتلك، إضافة إلى قدرته على أن يرتفع بنفسه فوق جميع المخلوقات، القدرةَ على أن يخسر نفسه ويسقط إلى أدنى درجة من الانحطاط.

على الطرف النقيض من حالة الرفض والتدمير هذه، ترى المسلم مدركاً لكونه صنيعة الله الذي نفخ فيه من روحه، وأوكل إليه أن يكون شاهده ووكيله على الأرض. وهكذا فإن الإنسان هو المخلوق المركزي الأول بين جميع الكائنات على اعتباره يُظهر الصفات الإلهية على أوضح صورة ممكنة. كل الخليقة موضوعة تحت حكمه وذلك فقط بفضيلة السلطة التي خوّله إياها الله الذي يخضع له خضوعاً مطلقاً.

عندما جعل الله الإنسان وكيله ونائبه وممثله (وهذه الترجمة تستخدم

أحياناً للدلالة على الخليفة) على الأرض، فإنه أوكل إليه مسؤولية أو (أمانة)، تقع على عاتقه حصراً من بين كل المخلوقات. ويعبّر القرآن عن هذا الموضوع بوضوح شديد وبعبارات تبقى موثرة حتى بعد الترجمة:

﴿إنّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا﴾ (الأحزاب، ٧٢).

إنها لأمانة مرعبة، لأنها تضع على كاهل الإنسان حرية الاختيار بين الخير والشر بين الحق والباطل بين الجنة والنار. إنها تطوق الشرط البشري بهالة من العَظَمة، لكنها عظَمة تحمل معها مغامرة رهيبة، أثبت الإنسان إزاءها أنه «ظلوم جهول». الإسلام يعطي المرء السبل الصحيحة لاتقاء هذه المغامرة وللاستفادة من حريته في أعمال تقوده، وهو خاضع، إلى الخير والحق والإله.

على الضد من اللاأدرية المعاصرة التي تعجز عن تعريف الإنسان وتحديد الأسباب العميقة لوجوده على الأرض، فإن الإسلام يعرض أنثروبولوجيا متماسكة تماماً ترد على معظم الأسئلة الأساسية الممكن طرحها. من الضروري الإشارة في هذا الإطار إلى أن الإسلام يناشد عقل الإنسان أكثر مما يناشد عاطفته. ونحن نعني «بالعقل» هنا العقل الأصلي، «الآدمي» الأساسي، وليس القدرة على المحاكمة المعقّدة، فالإسلام لايتوجه بنفسه حصراً إلى حكماء وفلاسفة هذا العالم، بل بالأحرى إلى الإنسان كما خُلق، بقدرته على إدراك المطلق واختيار ما ينسجم مع هذا المطلق ويقود إليه.

وعلى اعتباره دين الحقيقة، فإن الإسلام يهب الشرط البشري معنىً

لايمكن شرحه إلا كوظيفة للمطلق، وبذلك فإن الإسلام يمحو العبث العدمي للعالم المعاصر. إنه يصالح الإنسان مع نفسه ومع الخليقة ويقدم العلاج الفعال ضد مرض العصر.

هذا المرض هو، بطريقته، عاقبة تمرد إبليس، الملاك الساقط، الذي يصفه القرآن في بعض المقاطع الفّذة وهو يحاول الاستيلاء على الامتياز الذي منّ به الله على الإنسان، مما قاده إلى العيش في دراما خطئه ولعنته. وفقاً لهذه الرواية، إن الله، بعد أن خلق آدم، أمر الملائكة أن يسجدوا له. سجدت جميع الملائكة إلا إبليس الذي شرح رفضه قائلاً: أنا أفضل منه، خلقتني من نار وخلقته من طين. وعندما طرده الله، توسل إليه إبليس قائلاً: ﴿أنظرني إلى يوم يبعثون﴾ (الأعراف ١٤) وقد نال إبليس هذه المهلة ومنذ ذلك الحين وهو يعمل على حرف الإنسان عن الصراط المستقيم:

﴿ثم لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم... قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾

(الأعراف، ١٧ - ١٨)

حتى آدم سقط في غواية الشيطان، لكنه تاب وقبل الله توبته ووعده وزوجته بالهداية:

﴿فمن اتَّبع هداي فلا يضل ولايشقى﴾ (طه، ١٢٣)

إن هذه الهداية هي «الدين الخالد» الذي اتخذ تعبيرات متعددة عبر العصور، والتعبير الأخير والكامل منه هو الإسلام كما تجسد في الوحي الذي نزل على محمد. الإسلام، مثله مثل الديانات السابقة، يفسح في

المجال للإنسان أن ينجو من اللعنة الواقعة على اتباع إبليس، وأن يحقق النزوع الباطني الحقيقي للإنسان، الذي هو الخضوع للخالق، وهو ينعم بالامتيازات والبركات الموعودة لأحفاد آدم:

﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾ (الإسراء، ٧٠)

فالإسلام إذن لاينكر على الإنسان أن يتمتع كاملاً بالنعم التي وهبها الله له شرط أن يعترف بهذه النعم:

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون﴾ (البقرة، ١٧٢).

وعلى اعتباره دين التوازن، فإن الإسلام يعترف بهذا العالم والعالم الذي يليه، ومن المفهوم أنه يجب تفضيل العالم الآخر:

﴿ولاتنسَ نصيبك من الدنيا﴾ (القصص، ٧٧).

﴿ولَلآخرة خير لك من الأولى﴾ (الضحى، ٤).

الإسلام يضع المرء على طريق الآخرة التي تَفْضُل كل ما يمكن تخيله في هذا العالم ولكنه، كما سوف نرى في الفصول اللاحقة، يعطيه أيضاً وسيلة الاستفادة من الأشياء الطيبة في «هذا العالم» بتنظيم متسق بين الحياة الفردية والجماعية. ذلك أن على الناس أن يُرْضُوا إرادة الله ـ والإسلام هو الخضوع لهذه الإرادة. ثمة حقيقة وثيقة الصلة بهذا السياق: إن الكلمة العربية **إسلام** «خضوع» قريبة جداً من كلمة سلم أو سلام، فالخضوع لله يأتي بالسلام وهو الشرط المسبق للسعادة.

هنا قد يبرز الاعتراض التالي: إن المسلمين اليوم لايعطون صورةً عن السعادة والسلام. لدينا طرق عديدة للرد على هذا الاعتراض، لكننا

سنقتصر الآن على بعض ملاحظات مختصرة ربما تكون كافية إلى أن نعود إلى موضوع الوضع الراهن للعالم الإسلامي.

أولاً: يجب الاعتراف إن كل الأديان في عصرنا مأزومة بما فيها الإسلام، مع أن أزمته قد تكون أقل بكثير قياساً بغيره. من المجحف بحق أي دين أن نحاكمه متخذين حالة أتباعه، أو من يُفترض أنهم أتباعه، كمقياس أساسي في المحاكمة. إن المسلمين بصورة عامة مدركون أنهم يعيشون بطريقة بعيدة عن المثل الصحيحة للوحي الذي نزل على رسولهم، وهم يقرّون بكل طيبة خاطر أن كل وجودهم سوف يتغير حال اتباعهم تعاليم الوحي. لم يتحقق الإسلام بصورة تامة في أي وقت بعد صدر الإسلام، أي فترة الرسول والخلفاء الراشدين الأربعة؛ وقد احتفظ المجتمع الإسلامي، الأمة، بعد ذلك بحنينٍ ما إلى ذلك العصر الذهبي. بالطبع مرت الأمة عبر العصور بفترات ازدهار، لكن ما من أحد يزعم جدّياً أننا نمر الآن بإحدى هذه الفترات. والواقع يُظهر أن العكس تماماً هو الصحيح، فالعالم الإسلامي، كغيره، يمر بحالة أزمة وتفسخ لم يشهدها في تاريخه.

ومع ذلك، ليس بوسع المرء أن ينكر أن الوهن الذي يعانيه العالم الإسلامي يختلف تماماً عن أزمة الغرب المصنَّع: فالأسس الروحية والأخلاقية للإسلام لاتواجه تحدياً كما هو الحال بالنسبة لأسس الغرب، كما أن غالبية الناس في العالم الإسلامي تحافظ على إيمانها التقليدي. إن الأزمة التي تمر بها بلدانهم هي من طبيعة مادية أساساً، فبعض هذه البلدان وخصوصاً الآسيوية منها، تُعدُّ من بين الأفقر في العالم فلا تجد لها مكاناً على هذا الكوكب. هذا المأزق، الذي يمكن ردّه، إلى حدٍ ما، إلى ميراث السلطات الاستعمارية السابقة، هو بالتأكيد سبب البؤس الفظيع، غير أن

ذلك لم يَطَل الكرامة الإنسانية حتى لأكثر الناس حرماناً. ذلك لأن الإسلام يمنح الإنسان نُبلاً ما لا يفسده الفقر، لا بل قد يعزّزه الفقر أحياناً. لايمكن أن ننكر أن الإسلام يحافظ في غمرة الاضطراب الأعظم، على معنى ما للحياة ويحمي تلك الخاصية الأساسية التي تجعل الحياة جديرة بالعيش.

على ضوء هذا التصور فإن الإسلام، سواء في الغرب الثري مادياً والغثّ أخلاقياً، أم في الفقر المادي لما يدعى «العالم الثالث»، يمثل الرد الأوضح والأبسط والأكثر عمقاً على التحدي المعاصر. إنه يقدّم العلاج الناجع والثمين ضد مرض العصر لكل الأفراد والجماعات التي تعتنقه وتمارسه.

# نصوص أصلية

## أحسن تقويم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿والتين والزيتون * وطور سنين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذّبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين﴾

سورة التين

## مكان اللقاء

الإسلام هو اللقاء بين الإله بما هو كذلك، والإنسان بما هو كذلك.

الإله بما هو كذلك: أي الإله المتخيَّل، ليس كما أظهر نفسه بطريقة معينة في وقت معين، بل بشكل مستقل عن التاريخ، وبقدر ما يكون هو ما هو، وأيضاً بقدر ما يخلق ويكشف بطبيعته.

الإنسان بما هو كذلك: أي الإنسان المتخيَّل، ليس كمخلوق ساقطا يحتاج إلى معجزة لإنقاذه، بل كإنسان، ككائن على هيئة إلهية موهوبٌ ذكاءً قادراً على إدراك المطلق، وإرادةً قادرة على اختيار ما يقود إلى المطلق.

فريثيوف شون ـ فهم الإسلام.

## مقدمة للآخرة

على المسلم أن لايتعامل مع عناصر الحياة بازدراء أو تجاهل، ذلك لأنه وكيل الله، يتصرف بالأرض نيابةً عنه، فعليه أن يستخدم قدرات عقله وتأمله بما يرضي الله. مطلوب من المسلم، على العكس، أن يشيد المدينة الدنيوية، حيث عليه أن يقيم العدل والسلام، فالمسلم يعي جيداً أن هذه المدينة ليست شيئاً بذاتها لأن ﴿**كل شيء هالك إلا وجهه**﴾ (القَصص، ٨٨). فالحياة الدنيا مقدمة للآخرة التي ستعقب قيام الساعة والبعث والحساب، والآخرة هي الخالدة حيث يجزى الصالحون مكافأةً عظيمة ويحلّ عقاب فظيع على الكافرين. إن الإسلام لايدين الأشياء الدنيوية، فمن حق المسلم الانتفاع والاستمتاع بها بما يرضي الله واعياً أنها أشياء زائلة. وعندما ينتفع المسلم ويستمتع بالأشياء الدنيوية، إنما دون أن يسمح لقلبه بالتعلق بها، فإنه يشكر الله في العسر كما في اليُسر، ويمجّده في النصر ويحتمل النكبات بصبر، متأملاً شهادات الرسل والمثل الأعلى الذي سيبقى، حتى نهاية الزمن، أي تعاليم وحياة رسول الإسلام.

لويس غاردي «رجال الإسلام».

## التشويه الدنيوي

لاتُخفي اليهودية والمسيحية عجزهما عن الوقوف في وجه مدّ الفلسفة المادية وغزو الإلحاد للغرب. وقد تخلتا كلتاهما عن الحيطة من هذا الأمر، فترى بوضوح أن مقاومتهما تتراجع جدّياً أمام هذا المد الذي يهدد باكتساح كل شيء. فالملحد ذو الفلسفة المادية لايرى في المسيحية الكلاسيكية شيئاً أكثر من أنها نظام بناه الإنسان على مدى ألفي سنة بهدف ضمان سيطرة أقلية حاكمة على البقية المحكومة. إنه لايستطيع أن يرى في الكتابات اليهودية ـ المسيحية أية لغة تشبه ولو على نحو غامض لغته هو.

عندما يُذكر الإسلام أمام ملحد ذي فلسفة مادية، فإنه يتبسم برضى عن الذات لايوازيه إلا جهله بالموضوع. فهو يشترك مع المثقفين الغربيين، على اختلاف معتقداتهم الدينية، في أن لديه مجموعة عجيبة من الأفكار الخاطئة عن الإسلام.

علينا، في هذا الخصوص، أن نعذره مرةً أو مرتين. أولاً، بصرف النظر عن المواقف المستجدة في صفوف السلطات الكاثوليكية العليا، فقد عانى الإسلام في الغرب دائماً مما يدعى «تشويهاً دنيوياً». كل إنسان في الغرب لديه معرفة عميقة بالإسلام، يعلم جيداً إلى أي مدى جرى تشويه تاريخ الإسلام وعقيدته وأهدافه. كما على المرء أن يضع في اعتباره أيضاً أن الشخص الراغب بالمعرفة سيجد أن الكتابات المنشورة باللغات الأوروبية حول موضوع الإسلام (دع جانباً الدراسات ذات التخصص العالي) لاتغني ولاتسمن من جوع.

موريس بوكاي. التوراة والقرآن والعلم.

# الفصل الثاني

# الإنسان: محور الخليقة

لقد اختُزل الكون، بالنسبة للإنسان المعاصر، إلى مستوىً واحد من الواقع المحدود بالزمان والمكان. والخليقة ليست سوى تراكمِ ظواهرٍ، وحدها التجربة القائمة على معايير كمية، يمكنها أن تعيها. وبالنتيجة يبدو العالم خلطة أشياء متماسكة إلى هذه الدرجة أو تلك، وعبثية إلى هذه الدرجة أو تلك، وقد استبعد الفكر الفلسفي والعلمي أي تدخل من جانب المبادئ العليا في هذه الخلطة، لكي يصل في النهاية إلى القول بأنها محكومة بالصدفة فقط. هذه هي الأطروحة التي طورها البروفيسور البارز الحائز على جائزة نوبل جاك مونود - مدعوماً في حينه ببراهين علمية - في كتاب شهير نجح نجاحاً يُظهر بوضوح الدقة التي عبر بها عن الإطار المعاصر للعقل.

إن فهماً مشابهاً للكون، يحدد موقف الإنسان من الطبيعة التي يراها المعاصرون كموضوع يتصرفون به كما يحلو لهم، لإشباع حاجاتهم أو طموحاتهم أو نزواتهم. وبما أنهم يفشلون في إدراك المغزى العميق للطبيعة أو إدراك أي شيء يستحق الاحترام فيها - فهي بعد كل شيء نتاج الصدفة - وبما أنهم في فشلهم هذا ينزعون الصفة القدسية منها، فإنهم يمضون في

استغلالها وانتهاكها مدمرين تناسقها ومتسببين، تالياً، في الأزمة البيئية التي من حق الرأي العام العالمي أن يقلق حيالها أشد القلق.

وبالمقابل، فإن المسلم يرى أن الخليقة من صنع الإله، وأنها تظاهرة لآياته ومجده. والكون بما فيه ليس، بالنسبة له، سوى نظام من الرموز يشي بنظام أعلى. لاشيء في الطبيعة عبثي أو اعتباطي، فلكل شيء معنى يمكن أن يدركه أي امرءٍ لم تعمه ذهنية وانحيازات المعاصَرَة.

إن هذا الإدراك، الذي هو أيضاً القدرة على احترام أعمال الخالق والإعجاب بها، يسمح للمرء أن يرى في كل الأشياء شهادة على وحدة الله وقدرته الكلية. ﴿له أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون﴾ (آل عمران، ٨٣).

لاشيء يقع خارج نطاق القدرة الإلهية، فكل ما في الخليقة إذن يخضع لله وهو بذلك مُسلم. ومن بين كل المخلوقات، وحده الإنسان يمكنه أن يكون مسلماً على نحوٍ واعٍ تماماً. أن تكون مسلماً حقاً لايعني فقط أن تقدم الطاعة، بل أن تفعل ذلك بخيار هو الفعل الجوهري لكل الحياة البشرية: أن تقول «نعم» لله ولحقيقته ووحدته التي تتجلّى، بشكل أو بآخر، في كل المخلوقات.

لقد بورك الإنسان بصفات تميزه بالمطلق عن غيره من المخلوقات. فالله، الذي ﴿نفخ فيه من روحه﴾ (السجدة، ٩) منحه العقل. لذلك فالإنسان يميّز ويختار ﴿وهديناه النّجدين﴾ (البلد، ١٠). ويقول الله في كتابه: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا﴾ (الإنسان، ٣).

إن مركزية موقع الإنسان على الأرض تعني أنه إذا لم يختر سبيل الخضوع والاتّساق مع الإرادة الإلهية، واتّبع طريق الكفر والتمرد؛ فإنه لا بد سيغدو مصدر اضطراب في نظام الخلق. والظروف الراهنة تظهر هذا

الأمر تماماً. فالحضارة المعاصرة، التي تقوم على عصيان النظام الإلهي، تدمر توازن الطبيعة وتثير شبح الكوارث التي قد تبيد الحياة على الكوكب.

مما لاشك فيه أن «الخُضْر» الذين يرجون انقاذ الطبيعة من خطر تدمير كهذا كانوا أكثر فاعلية لو أنهم ناضلوا، في الوقت نفسه، لاستعادة النظام داخل أنفسهم. فبفضل التوافق القائم بين الكون والإنسان فإن الأخير لايستطيع ممارسة أي فعل خيّر في العالم مالم يضع نفسه بالتوافق مع المنبع الإلهي للخير ويقبله على أنه ملهمه.

يقول الله في القرآن: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصّلت، ٥٣). وهذا يعني أن تأمل الظاهر من نظام الخلق هو أحد وسائل الغوص في العالم الداخلي المتوافق معه. هناك مقاطع أخرى كثيرة في القرآن تلحّ على شفافية الطبيعة وعلى الدلائل التي تحملها ﴿لأولي الألباب﴾ و﴿الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض﴾. ويقول النص المقدس على لسان هؤلاء ﴿ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك﴾. (آل عمران، ١٩١) كما لو أنه يدحض مسبقاً الفرضية المعاصرة عن «عشوائية» الخلق المزعومة.

يستطيع الإنسان، بفضل العقل الممنوح له، ليس فقط أن يتأمل النظام الإلهي الحاضر في الكون، بل أيضاً أن يتدخل بصورة إيجابية وأن يحيا باتساق معه. ولكنه إذا لم يشأ رؤية آيات الله فيه وأنكر سيادة الله وأيقن أنه يستطيع أن يفعل ما يشاء في كل شيء على الأرض، فإنه عندئذٍ ينزع القدسية من الطبيعة ويدمّر التوازن ويغدو بالمحصلة أخبث عنصر في الخليقة.

ولذلك فإن حرية الاختيار تجعل الإنسان يتحمل المسؤولية كاملةً عن التوافق مع الموقع المركزي الذي له في نظام الخلق. بالطبع ﴿ألّا تزر وازرة

وزر أخرى﴾ (النجم، ٣٨) لكن ثمة مسؤولية أيضاً تقع على عاتق المجموعات والمجتمعات والأمم:

﴿إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد، ١١).

هذه المسؤولية تعني أن الإنسان، كفرد وكعضو في مجموعة ينتمي إليها، لا بد أن يحاسب على كل الأفعال التي قام بها خلال حياته على الأرض. أحد التعابير التي يستخدمها الإسلام للدلالة على يوم القيامة هو: «يوم الحساب».

يقاوم العقل المعاصر الكافر هذه الفكرة نظراً إلى أن مفهوم الحساب يتضمّن بالضرورة الحد من السلطة الكلية التي يزعمها الإنسان لنفسه في العالم. مع أن هذه الفكرة تنسجم مع الإحساس الفطري بالعدالة الذي يحمله كل منا في أعماق روحه. فهل يمكن للمرء أن يقبل أن كل الشرور التي تملأ العالم، وكل الفظاعة والرعب الذي يُمارس بشكل روتيني، ستمر دون أن تقوم سلطة عليا بالمحاسبة عليها؟ هل يعقل أن يفلت أولئك المسؤولين عن المعاناة والقمع والفوضى من العقاب إلى الأبد؟ رغم أن بعض «الفلاسفة» يعتقدون أن بمقدورهم الرد على هذه الأسئلة بالإيجاب الساخر، فإن من الواضح أن الإنسان في عصرنا لم يفقد تماماً الإحساس العميق، مهما يكن هذا الإحساس غامضاً، بأن ثمة عدالة عليا وقصوى لا بد أن تتكشف يوماً ما. على كل حال، هذا ما يؤكده الإسلام تأكيداً مطلقاً، فكثُرما يكرر القرآن أن يوم الحساب (لاريب فيه) ﴿ربنا إنك جامعُ الناسِ ليوم لاريب فيه إن الله لايخلف الميعاد﴾ (آل عمران، ٩).

لايعترف الإسلام بالخطيئة الأصلية ولذلك فالإنسان يحمل على عاتقه مسؤولية كاملة ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (التين، ٤) ولهذا السبب حين يفشل الإنسان في اتباع الطريق التي دعاه الله إليها فإنه

ينحط إلى ما دون المخلوقات الأخرى. فالرسول محمد يقول إن كل شخص يولد طاهراً ولايرتكب إثماً حتى يبلغ الرشد، وثمة قول آخر للرسول غالباً ما يستشهد به في هذا المجال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ».

إن مفهوم الفطرة هذا أو «المبدأ البشري» الذي يشبه بطريقةٍ ما مفهوم «الضمير»، يعني أن الإنسان لمجرد كونه وُلِدَ إنساناً يمتلك معرفةً بدئية بالحقيقة والخير. وهذه المعرفة الموهَنة لدى معظم الناس لا بد من وقعنتها عبر نور الوحي وممارسة الإسلام وفقاً لسنة الرسول التي هي الفطرة، المبدأ التام لكل البشرية؛ وبالمقابل فإن الكافر محجوب عن هذا النور الداخلي الذي هو الفطرة بفعل إنكاره المتعمد، ولولا ذلك لاستطاع فهم الحقائق التي كشفها الوحي. لذلك فإن ادعاءه الجهل لايعفيه، والواقع أن مسؤوليته تصبح بذلك أكبر. ثمة نص قرآني يؤطر هذه الفكرة:

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ (الأعراف، ١٧٢).

هذا يعني وفق التفسيرات التقليدية أن الله قد عقد ميثاقاً مع كل فرد قبل ولادته يحمل الإنسان خاتمه في قلبه. كل إنسان إذن يولد وهو مهيأ لاستقبال الإسلام. لكن الإنسان يملك الحرية في خيانة الميثاق، هذه الحرية التي تحدد مصيره، فيتّبع الأوهام الهامشية للإشراك ويخسر نفسه بدل أن يعود إلى الوحدانية القائمة في مركز الأشياء جميعاً وفي أعماق ذاته.

غالباً ما يعتقد الغربيون، الذين يميلون إلى أن ينسبوا للإسلام جبرية مزعومة، أن الإسلام لايتسع لأي مفهوم حقيقي عن حرية الإرادة. بيد أن

الإسلام على العكس، يُسند أهمية أساسية للإرادة الحرة؛ ذلك أن الإنسان بدون إرادة حرة لن يمتلك حرية الاختيار بين الخضوع لله والتمرد عليه؛ وبناءً عليه لن يكون مسؤولاً عن ما يأتي به من أفعال. فبدون مفهوم الحرية يتحول الإسلام إلى مجرد استسلام سلبي عديم الفعالية يليق بالجمادات والعجماوات في حين أنه طاعة واعية وعن رضىً تام تليق بالكائنات البشرية.

مع ذلك، يمكن أن يعترض المرء قائلاً إن التحديد المسبق لمسار الأحداث يعني ـ كما يعلّم الإسلام ـ أن الله قد حدد مسبقاً مصير جميع الناس وبالتالي ليس ثمة حرية حقيقية لهم، فلا يعتبر الإنسان إذن مسؤولاً عن تصرفه. حقاً، إن القرآن يشير في غير مكان إلى «قضاءِ الله وقدرِهِ» الذي خُلقت وحدّدت كل الأشياء وفقاً له. ولهذا السبب ـ فيما يتعلق بالإنسان ـ فإن الله ﴿خلقه فقدّره * ثم السبيل يسّره﴾ (عبس، ١٩ - ٢٠). وتقرأ في القرآن أيضاً: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ (الحديد، ٢٢).

يمكننا أن نلاحظ أن فكرة القدر لاتقتصر على الإسلام، إنها تنبع بالضرورة من فكرة القدرة الكلية للإله. فالكتاب المقدس يشير إلى ذلك في أكثر من مكان ومع ذلك لم يقف المفكرون اليهود أو المسيحيون في وجه مبدأ الحرية البشرية، وكان بمقدور فيلسوف مسيحي مثل لايبنتيز أن يصل إلى النتيجة التالية (لاريب أن كل شيء مقرر سلفاً، لكن بما أننا لانعرف ما الذي أو كيف قرر أو حدد مسبقاً، يجب أن نقوم بما علينا وفق ما يمليه العقل الذي منحنا الله وبالإذعان للمبادئ التي أرساها الله لنا).

لطالما أثار التناقض الظاهري في الإسلام بين حرية الفرد والتحديد المسبق لأفعاله، جدالات كثيرة تمت فيها الإشارة مراراً إلى المقطع التالي من القرآن: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا * وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ (الإنسان، ٢٩ - ٣٠). يرى الفكر الإسلامي عموماً أن حل هذه المعضلة يكمن في قبول الإرادة السماوية التي تتوافق مع المفهوم الأساسي للإسلام. غير أنه تمت الإشارة بالتوازي مع ذلك إلى أن التناقض ينحل عندما ننظر إلى الحرية البشرية كمساهمة محدودة في حرية الإله اللانهائية والمطلقة. ومهما يكن من أمر، فإن القدرة على الاختيار بحرية بين الاتساق مع إرادة السماء وبين رفضها هي تجربة لايمكن لعاقل أن ينكرها.

على أية حال، عندما يحوز الإنسان نوعاً ما من الحرية فقد يبدو للوهلة الأولى أنه يتخلى عنها فيما لو أقدم على فعل الخضوع. لاشك أن الأمر سيكون كذلك لو أن هذا الخضوع واقع تجاه شيء هو بذاته مخلوق وخاضع لحدود الوجود الدنيوي. لكن الأمر برمته يختلف حين يكون الخضوع لله المطلق الحرية واللامحدود بأي نوع من التقييدات أو التحديدات.

إن حرية الاختيار التي يتمتع بها الإنسان، والتي هي مشاركة في الحرية اللامحدودة لله، تظهر في الموقع المركزي الذي يشغله الإنسان في نظام الخلق. فعندما جعل الله الإنسان «وكيله» أو ممثله على الأرض، فإنه قد أعطاه شيئاً من حريته(*) إضافةً إلى إمكانية استخدامها بشكل حسن أو سيء.

(*) الهاء تعود إلى الله. م.

وقد تم الترميز إلى هذه الإمكانية في القرآن كما في الكتاب المقدس في تحريم ثمرة «شجرة الخلود» على أول زوج بشري:

﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيثُ شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ (الأعراف، ١٩).

بالطبع عندما ضرب الإنسان الأول بالتحريم الإلهي عرضَ الحائط؛ فإنه كان يستخدم الحرية التي منحه إياها الخالق، ولكنه في الوقت عينه حجّم هذه الحرية، فعصيانه جعله تابعاً لحدود الوجود، بحيث أصبح أكثر خضوعاً للعالم المادي ولمحن منزلته الدنيوية. ﴿قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ (الأعراف، ٢٤).

مع ذلك، تاب آدم، ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ (البقرة، ٣٧). قبل الله توبته ثم أعطاه «الهداية»: ﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾ (الأعراف، ٣٥).

وهكذا فقد أصبح آدم، وفقاً للتصور الإسلامي، وعلى الرغم من خطيئته، النبي الأول في القائمة الطويلة من حملة الوحي الكوني التي ختمها محمد والتي تشمل كل الرسل، المعروف منهم وغير المعروف، الذين تلقّى البشر الهداية عبرهم. وبتوبته إلى الله الذي جعله نبياً فإن آدم لم ينقل اللعنة التي وقعت عليه بسبب إثمه إلى نسله، على العكس، فقد أورثهم وعداً بالنعمة الإلهية التي ستضم كل الذين يعودون إلى النظرة ويسلكون السبيل التي رسمها لهم الرسل.

يبقى مثال آدم الرمزي مناسباً تماماً لهذا العصر، على اعتبار أن الإنسان بالرغم من سقوطه، يحتفظ بموقعه المركزي في الكون إلى جانب الامتيازات التي تتأتى منه. ويمكن لهذا الموقع أن يصبح أكثر فاعلية، لأن

الشرط البشري يسمح بالاقتراب الحميم من الإله حتى بدون وعي منا:

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ (ق، ١٦).

إن العودة إلى الله بالتوبة إليه كما فعل آدم هو الاستخدام الأمثل للحرية التي مُنحها الإنسان. إنها تعني عودة الشرط البشري إلى حالة توافق مع قصد الخالق.

قد يبدو للذهن المعاصر أن المسلم الذي يخضع لأمر الله ويلزم نفسه بسلسلة من الواجبات وقواعد الحياة الدينية، أقل حريةً من رجل علماني بالكامل يعيش وفق ميوله وغرائزه، مع أن الانضباط الإسلامي. في الواقع لايحرم المسلم من حريته، لكنه إعادة تأسيس بسيطة، في الحياة الفردية والجماعية، تطال نظام قيم وإيقاع يتماشى مع طبيعة الإنسان الكلية ومع أعمق تطلعاته، إضافة إلى أنه يتماشى مع إيقاع الكون.

لاشك أن الحرية كما نفهمها اليوم هي سلعة ثمينة، تبدو قيمتها واضحة خصوصاً في أعين المحرومين منها. لكنها تبقى دائماً أمراً نسبياً ومن المحال تحقيقها على نحو تام في الحياة الدنيا: ما من إنسان يتمتع بالحرية على نحو محدود نوعاً ما ويطمح إلى التمتع بها كاملةً بلا حدود، إلا ويجد نفسه في النهاية مدفوعاً للاعتراف بأنها تراوغه إلى درجة أنه يلاحقها. لاشك أن الثورات التي أغدقت الوعود في هذا المجال قد حطمت بعض القيود لكن ذلك لم يُتح إلا عبر فرض قيود أخرى. كم من الجرائم ارتكبت وكم من الطغاة برزوا باسم الحرية!

الإسلام، من جهته، أكثر واقعية وأكثر مثالية في آن معاً، فهو يدرك أن الإنسان في هذا العالم السفلي محكوم بدرجة محدودة من الحرية.

ولذلك فإنه يعظه في المقام الأول أن يستخدمها الاستخدام المناسب، نظراً إلى أن الإسلام يعرف الضعف البشري جيداً. هكذا تتلخص، في التحليل الأخير، كل حياة المسلم. فالقيام بأي طقس ديني هو بطريقته تجديد للخيار الأساسي الحر الذي قام به المؤمن بتفضيله وحدانية الإله والحقيقة على الإشراك وأوهام العالم. وهكذا فإن المسلم، بعد أن تزوّد بالوسائل العملية للانسجام مع إرادة الله يوماً بيوم، يساهم بصورة متزايدة في حريته الكلية.

بهذا الطريق يقدم الإسلام للإنسان إمكانية العودة إلى الله متبعاً مثال آدم، بقبول الهداية، وملء المكان المركزي في نظام الخلق الذي هو قدره. المسلمُ لايرى إلى الخلق بالعين الفاسدة التي ينظر بها المعاصرون الذين يختزلون الكون والطبيعة بالقوانين الكمية، فلا يرون فيهما إلا فوضى وأحداث لامعنى لها؛ في حين يتأمل المسلم فيهما «علامات» الحقيقة الإلهية. فقط على هذا النحو يستطيع الإنسان أن يستعيد وظيفته المقدسة كَوَكيْل لله على الأرض، فيكُفَّ عن كونه شريراً يهدد الطبيعة بالدمار، ليصبح حارساً وحامياً يضع على عاتقه مسؤولية كاملة تجاه نظام الخلق.

من الأهمية بمكان أن نقول أيضاً إنه على اعتبار أن الحرية الإنسانية التي يدعو الإسلام إلى استخدامها استخداماً سليماً لاتنفصل، وفق المنظور الإسلامي، عن ظرف جاهزية المؤمن في تلبية الإرادة الإلهية وممارسة دينه دون عوائق، لذلك ففي كل مرة تبرز فيها القيود والعوائق التي تقف في طريق حرية المؤمن في ممارسة عبادته وفق تعاليم الله، يعتبر المسلمون أن من واجبهم النضال لاستعادة حرية العبادة تامة غير منقوصة.

وهذا النضال هو أحد أشكال الجهاد (الحرب المقدسة) كما تتم

ترجمة هذه الكلمة العربية التي تعبر عن شيء أقرب ما يكون إلى فكرة (الجهد الجماعي). هذا هو المعنى الحقيقي للنضال الذي قاده المسلمون ضد الأنظمة الاستعمارية وضد أي شكل من أشكال السيطرة والإخضاع المعادي لروح ممارسة الإسلام. لقد سقط الكثير من الشهداء في نضالات التحرير هذه عبر القرون، ولايزالون يسقطون حتى اليوم.

على هؤلاء المقاتلين أن يتذكروا دائماً، وفق الروح الإسلامية الأصيلة، أن الحرية في نظر الإله وسيلة وليست غاية في ذاتها. ولهذا السبب فإن صرخة المجاهدين الحقيقيين في المعركة، مهما يكن شكل الصراع الذي تتخذه، كانت دائماً وستبقى: «الله أكبر».

# نصوص أصلية

## الفطرة (المبدأ البشري)

﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم ولكن أكثر الناس لايعلمون﴾ (الروم، ٣٠).

## نور على نور

﴿الله نور السموات والأرض مَثَلُ نُورِه كمشكاةٍ فيها مصباح المصباحُ في زجاجة الزجاجةُ كأنها كوكب دُرّيٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نورٌ على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناسِ والله بكل شيء عليم﴾ (النور، ٣٥).

## في قلب المسلم

إن ﴿مَثَلُ نُوره﴾ الواردة في الآية تعني «مَثَلُ نُوره في قلب المسلم». هذه إشارة إلى الضوء الذي ينيره الله في قلب أتباعه على شكل معرفة وحب الله والإيمان به والبقاء على ذكره. كما أنه إشارة إلى النور الذي يبثه الله في الناس حين يمنحهم الحياة زارعاً الضوء في قلوبهم.

إن قلب الإنسان منير. إنه قريب من معرفة الحقيقة بفطرته وذكائه،

ويأتي الوحي كي يمارس دوره فيصبح نور فطرته، التي فطرهُ الله عليها، أكثر إشراقاً. إن نور الفطرة الذي يتحد مع نور الوحي هو الشيء الذي يعبر عنه بالقول ﴿نور على نور﴾.

## القدر

﴿إنّا كل شيءٍ خلقناه بقدر﴾ (القمر، ٤٩).

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ (التوبة، ٥١).

﴿وخلق كل شيء فقدَّره تقديرا﴾ (الفرقان، ٢).

﴿إن الله بالغُ أمره قد جعلَ الله لكل شيء قدرا﴾ (الطلاق،٣).

﴿فقدرنا فنِعمَ القادرون﴾ (المرسلات، ٢٣).

## حديث

خاطب الله آدم قائلاً: خلقت هذه الجماعة للجنة وسيسلك أفرادها سلوك أهل الجنة. وقال أيضاً: خلقت هذه الجماعة للنار وسيسلك أفرادها سلوك أهل النار. لدى سماع هذا سأل أحدهم: ما الغاية إذن من سلوكنا بهذه الطريقة أو تلك؟ فأجاب: عندما يخلق الله الإنسان المقدر له الجنة فإن سلوك هذا الإنسان سيجعله جديراً بالجنة إلى أن يموت فيدخلها. وعندما يخلق الله الإنسان المقدر له النار فإن سلوك هذا الإنسان سيشبه سلوك أهل النار وحين يموت سيدخلها وقال الرسول أيضاً لصحابته:

«ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة، قالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة،

وأما من كان من أهل الشقاء، فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى﴾».

استشهد به أحمد غلواش في كتاب «دين الإسلام».

## بأي حق يستغل الإنسان مملكة الحيوان

كرّس إخوان الصفا واحدة من أطول رسائلهم للحديث عن الحيوانات. وفي هذه الرسالة يخصص إخوان الصفا قسماً طويلاً، وهو أطول قسم في جميع رسائلهم، للجدل بين الإنسان والحيوانات. تناقش هذه القصة المكتوبة بأسلوب جميل والتي يبدو مضمونها معاصراً في ضوء الأزمة البيئية الآن، الحجج التي يسوقها الإنسان دفاعاً عن حقه في السيطرة على مملكة الحيوان وتدميرها، وردود الحيوانات التي تدحض كل هذه الحجج القائمة على امتيازات الإنسان لمجرد كونه إنساناً مثل قدرته على الإبداع والاستنتاج. رضيت الحيوانات أن تطيع الإنسان وتخدمه فقط عندما رأت أن بين الناس قدّيسين يحققون، بعودتهم إلى الله، الغاية الأعمق للملكة الحيوانية. مغزى هذه القصة أن للإنسان الحق في السيطرة على الحيوانات شرط أن يبقى واعياً لخلافته أي لكونه وكيل الله على الأرض؛ ومن زاوية أخرى كونه وكيل كل المخلوقات التي على الأرض أمام الله. خلاف ذلك ليس له أي حجة مقنعة من أي نوع لأن يحكم ويسيطر على غيره من المخلوقات، وفي الواقع فإنه سيدفع الثمن غالياً جرّاء اغتصابه وظيفة غير موكلة له إلا كونه ابن آدم الذي علمه الله (أسماء الأشياء جميعاً.

**سيد حسين ناصر. العلم الإسلامي**

# الفصل الثالث

# الرسالة الخالدة وخاتم النبيين

﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمةٍ إلا خلا فيها نذيرٌ﴾ (فاطر ٢٤).

﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داؤود زبورا * ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما﴾ (النساء، ١٦٣ - ١٦٤).

تلك إذن، حسب ما جاء في القرآن الموحى، مهمة محمد، رسول الإسلام، وهذا موقعها في سياق الوحي الكوني. لقد جاء ليذكّر الإنسان، الذي يميل أبداً إلى النسيان والتحريف، بالرسالة الخالدة للحقيقة الإلهية المطلقة التي لم تتبدل منذ بدء الخليقة ـ ذلك أن ما يتبدل لايمكن أن يكون حقيقة مطلقة ـ الرسالة التي أعاد الله تأكيدها من وقت إلى آخر بطريقة أفسحت المجال لكل الناس من كل الأمم وفي كل العصور بلا استثناء معرفتها. لكن حلقة الوحي تكتمل مع محمد ﴿خاتم النبيين﴾ (الأحزاب،

٤٠). ولا جدال في أنه لم تتأسس أية ديانة كبرى منذ وفاة محمد ولم تظهر أية شخصية ترقى إلى مستواه في تاريخ البشر.

لقد تنوعت أنماط نزول الوحي كثيراً منذ نوح، لا بل منذ آدم، لكن ثمة عناصر تبقى ثابتة في كل النواميس الأساسية التي ترجع إلى مصدر لابشري أو، بكلام آخر، إلى المقدس. والعنصر الأول فيها هو الحالة الميتافيزيقية: التأكيد على الحقيقة الماورائية المتفردة والكلية القدرة. هذا تماماً ما تعبر عنه الشهادة في الإسلام (لا إله إلا الله)، هذه العبارة المصاغة بشكل يليق بالكمال الإلهي، تلخص الحقيقة الأساسية التي لم يتم التعبير عنها من قبل بهذا التكثيف، مع أن هذه الحقيقة مألوفة في الديانات السماوية السابقة وحكمة العصور القديمة.

العنصر الثاني الذي نجده في كل الديانات السماوية هو مبدأ أن الإنسان مسؤول عن سلوكه وأنه سيحاسب عليه عند نهاية العالم الدنيوي. وقد رأينا، في فصل سابق، الأهمية الخاصة التي يوليها الإسلام لهذه النقطة.

ولأن الله «غفور رحيم» وفق الصيغة التي ترد مراراً في القرآن، ولأن رحمته تسبق غضبه، فلا يعقل أن يترك القسم الأعظم من الناس ولآلاف السنين في جهالة وضلال. ولهذا يؤكد القرآن أنْ ما من أمةٍ إلا جاءها «نذير»، ويريد الله في كلامٍ موجه إلى محمد أن يجعله يدرك جيداً أن الوحي لايقتصر على الرسل الذين جاء ذكرهم بالاسم في الكتاب.

من المفيد أن نلاحظ في هذا المجال أنه وفقاً لأحدث البحوث في حقل علم الأعراق البشرية وعلم الآثار تبين أن الشعوب المعزولة وحتى أكثرها «تخلفاً» كانت على الدوام تؤمن - إلى هذا الحد أو ذاك من التشوش - بوجود قوة إلهية عليا. وتحتفظ بعض القبائل في حوض الهادئ

وأفريقيا وجنوب أميركا، وهي قبائل أبعد ما تكون عما نسميه «حضارة»، بآثار معرفة ميتافيزيقية عالية التطور ولم يجر تفسير ذلك حتى الآن. لاشك أن كلاً من هذه القبائل تلقت، في ماضٍ سحيق، تعاليم «نذير» ولكن تعاليمه أصبحت، مع مرور القرون، غامضة وطرأ عليها تعديلات حتى لم يبق منها سوى الخرافات الساذجة.

هكذا كان حال العرب في الجاهلية (عصر الجهل)(*) التي سبقت الدعوة الإسلامية. آنئذٍ كانت مكة وهي مدينة تجارية بنيت حول الكعبة التي بناها في عصر سابق ابراهيم وابنه اسماعيل إكراماً للإله الواحد، الله، قد غدت مركزاً لعبادة إشراكية وحاقدة غالباً.

حوالي العام ٥٧٠ م ولد الرجل الذي قُدِّر له أن ينقل الرسالة الأخيرة في حلقة الرسل، في مدينة محاطة بصحراء قاحلة ومقطوعة منذ قرون عن التيارات الحضارية والدينية الكبرى للعالم الخارجي. ينتمي محمد إلى القبيلة الحاكمة في مكة، قريش، فَقَد والديه في سن مبكرة ونشأ في منزل عمه الذي كان يعيل أسرةً كبيرة، وبدأ محمد يكسب عيشه من مرافقة القوافل التجارية الأمر الذي أتاح له العديد من الفرص للقيام برحلات طويلة وبشكل خاص إلى سورية.

كل من تعامل معه عرف عنه الطهارة التامة والذكاء الحاد وهذا ما يسّر له العمل في مصلحة أرملة تنتمي إلى طبقته الأرستقراطية عينها: خديجة التي كانت تتزعم مؤسسة تجارية هامة. لم يمض وقت طويل حتى تزوجت به .وكان له من العمر ٢٥ عاماً وكانت في الأربعين من عمرها. تعلق بها بشدة ولم يتزوج غيرها إلا بعد أن توفيت.

---

(*) واضح جهل الكاتب بمصدر تسمية «الجاهلية». م.

مع أن محمداً واصل نشاطه التجاري، إلا أنه بدأ أيضاً يلجأ إلى الصحراء في أوقات منتظمة بهدف التأمل، وكان يقوم أيضاً بالطواف الطقسي حول الكعبة وهي ممارسة تعود لتقليد غارق في القدم. كان يتوجه بعبادته فقط إلى الله، الإله الأعلى، ويشيح بوجهه نفوراً من الأصنام التي كانت تنتصب في الحَرَم.

في الأربعين من عمره، بينما كان في غار حراء قرب مكة، لاحظ كائناً يشع بنور باهر يقترب منه. كان الملاك جبريل وقد جاء ليعلن له أن الله قد اختاره رسولاً للبشرية. استولى عليه الرعب، وتساءل ما إذا كان قد فقد عقله، أم وقع ضحية هجوم قوى شيطانية. وجد الراحة والطمأنينة لدى خديجة التي لم تشك لحظة واحدة بالأصل الإلهي للرسالة وبحقيقة المهمة التي أوكلت إليه.

بعدئذٍ صار ظهور الملاك يتكرر أكثر فأكثر مؤكداً لمحمد أنه حقاً رسول الله، وأملى عليه السورة الأولى من الكتاب الذي سيكتمل بالسور الباقية على مدى ثلاثة وعشرين عاماً. وقد شرع الرسول الجديد، استجابة لأمر الله، يبشّر بالرسالة بين مواطنيه المكيين، يتوجه إلى الضعفاء والأقوياء بالحماسة عينها.

تلحّ السورة الأولى التي نزلت في مكة على فكرتين مسيطرتين: التسليم بإله واحد مطلق غير محدود كلّي القدرة لاشريك له؛ والتأكيد على الخاتمة التي لامحيد عنها، الساعة الأخيرة، عندما يحاسب الناس على أفعالهم، يُساق البعض إلى جهنم والبعض الآخر إلى النعيم الأبدي. وبتأثير هاتين الحقيقتين الأساسيتين دعا الرسول مواطنيه للخضوع إلى الخالق القادر، خالق السموات والأرض ومصدر الخير كله؛ لكن هذه الدعوة

وجدت نفسها بالضرورة في هجوم مباشر على الوثنية التقليدية للمكيين وبالتالي لم يكن بمقدورها أن تتجنب إثارة عداوتهم.

مع ذلك فقد كسبت الدعوة بعض الأنصار المتحمسين والمتفانين. بعد خديجة، المسلمة الأولى، بدأ عددٌ قليل من المؤمنين، بالتجمع حول محمد ومن ضمنهم ابن عمه علي وزيد العبد المعتق وأبو بكر رجل الأعمال الموسر وبضعة رجال ونساء آخرين معظمهم من المستضعفين. في البداية اقتصرت المعارضة، وقد وجدت نفسها أمام الجماعة الإسلامية الوليدة، على عبارات السخرية والهزء، ثم أصبحت بعدئذ أكثر قسوةً وشدة، لتتحول بعدئذٍ إلى اضطهاد عارٍ هدد حياة المسلمين والرسول الذي اضطر أن يتحمل كل أصناف الإساءات. أريق الدم الإسلامي وسقط للدين الجديد أول شهدائه.

مع ذلك كان عدد المسلمين في ازدياد. وغالباً ما كان مجرد سماع القرآن هو السبب في الإيمان، ذلك أن النص القرآني تجاوز في جماليته وقوته كل ما تمكن الشعر العربي من التعبير عنه. لقد أحدث سماع النص المقدس رنيناً داخلياً مدوياً تردد في أعمق مستوى من كيان الإنسان وأطلق استجابةً مفاجئة قادته إلى الإيمان. لقد جذبت تلاوة القرآن إلى الإسلام رجالاً كانوا من أكثر المعادين ضراوةً له. أحد هؤلاء، وهناك كثير غيره، عمر بن الخطاب، الرجل النادر في شدة بأسه، الذي قرر أن يقتل الرسول فانتهى به الأمر إلى أن أصبح واحداً من أشد صحابته بسالةً.

لم يخمد الاضطهاد بل أصبح أكثر ضراوة، الأمر الذي دفع محمد إلى إرسال مجموعة من أنصاره للجوء إلى الحبشة حرصاً على حياتهم الثمينة التي كان يمكن أن يخسرها بلا داعٍ لو بقوا في مكة. رحب حاكم

الحبشة المسيحي بالمهاجرين أيما ترحيب، وتقول الأخبار أنه تأثر إلى حد البكاء لدى سماعه أن العرب تلقوا وحياً جديداً يضفي على المسيح والعذراء المباركة أعمق التبجيل.

مع مرور بعض الوقت عاد الكثير من هؤلاء المهاجرين إلى مكة ظناً منهم أن الاضطهاد قد زال. لكنهم في الواقع لم يجدوا ثمة الأمان ووجدوا أنفسهم مجبرين على التحضير لهجرةٍ جديدة.

حدث خلال هذه الفترة المكية الأولى من الوحي حدثٌ على قدر عظيم من الأهمية في تاريخ الإسلام: المعراج «الرحلة الليلية» التي جاء ذكرها في القرآن بالعبارات التالية:

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا﴾ (الإسراء، ١).

انتقل الرسول خلال هذه التجربة التي لايدركها العقل من المسجد الحرام ـ الكعبة في مكة ـ إلى أبعد مسجد، في اللغة العربية (المسجد الأقصى)، وهو اسم موقع معبد القدس. ثم من الصخرة المقدسة للحرم القديم، رُفع إلى السماء السابعة، وخلال صعوده هذا قابل الرسل الذين أرسلهم الله إلى الأرض من قبل وأبرزهم إبراهيم وموسى وعيسى. أمّ بجميع الرسل للصلاة ثم وجد نفسه وحيداً في حضرة الله. وكان هذا بالنسبة لمؤسس الإسلام تأكيداً على أن مهمته تأخذ مكانها حقاً في نسق الرسالات التوحيدية الكبرى وتشكل تأليفاً وخاتمة لها.

في اليوم التالي، في مكة، وصف الرسول لصحابته هذه المعجزة، وبينما شكك البعض بصحتها أعلن أبو بكر: «إنني أشهد أن محمداً صادق في كل كلمة يقولها». منذ ذلك اليوم آمن المسلمون جميعاً بصحة

المعراج. ومن هنا يأتي تعلّقهم الدائم بالقدس التي يعتبرها المسلمون مدينة الإسلام الثالثة بعد مكة والمدينة.

في هذه الفترة كان المسلمون يتوجهون أثناء أدائهم الصلاة نحو القدس التي كانت تشكل لذلك قبلتهم. ولم يجر تحويل القبلة إلا فيما بعد في المدينة، حين تلقى الرسول وحياً قرآنياً يأمره بالتوجه منذئذٍ نحو الكعبة في مكة. ومنذ ذلك الحين صارت الكعبة قبلة المسلمين، رغم أنه وفقاً لبعض التعاليم يجب استرجاع القبلة الأولى، القدس، في نهاية الزمان عندما تلوح الساعة الأخيرة.

في هذه الغضون أصبح موقف الجماعة الإسلامية الأولى في مكة يزداد ضعفاً أمام عِداء قريش. ولم يعُدْ التضامن القَبَلي، الذي تمكن محمد بفضله من الاعتماد، إلى درجةٍ ما، على الحماية التي وفرها له أقرباؤه، الضمان الكافي له. وبدا واضحاً بما يكفي أن الإسلام لن يستطيع التقدم أكثر في البيئة المكية. ومن جهة أخرى فقد علم عدد لابأس به من الغرباء المسافرين عبر المدينة التجارية (مكة) بالدعوة الإسلامية وتأثروا بها بعمق.

هذا هو على نحو خاص حال القادمين من يثرب، وهي واحة تقع على بعد سفر بضعة أيام شمال مكة، وكان قد أعلن عدد من سكانها إسلامهم. وإدراكاً منهم للنفوذ الفريد الذي يتمتع به محمد، فقد أيقنوا أن لا أحد غيره يمكن أن يضع حداً للصراعات التي كانت تفتت تجمعهم. فقاموا لذلك بدعوته مع صحبة للعيش في يثرب التي سرعان ما عرفت باسم «مدينة النبي» أو المدينة.

وعلى أثر وحي سماوي تقرر أن يغادر كل المسلمين من مكة ويلجؤوا إلى المدينة الشمالية. انطلقوا مجموعات صغيرة كي لايلفتوا انتباه

القرشيين. بعد وقت قليل لم يبق من المسلمين في مكة سوى الرسول وأبي بكر وعلي مع القليل من أقربائهم المقربين وبعض العبيد.

أدرك أعداء الإسلام الخطر الذي تشكله مغادرة الرسول عليهم فصمموا على قتله. وعندما حاولوا تنفيذ مخططهم أفلح الرسول في مغادرة مكة سراً بصحبة أبي بكر.

وفي الحال تم إرسال فرقة مسلحة من المكيين تتعقب الهاربَيْن اللّذَين كان أسرهما مؤكداً لولا الحماية الإلهية. ولم يتمكنا من الوصول إلى المدينة بأمان إلا بعد حوالي عشرة أيام (والعديد من الحوادث). لدى وصولهما إلى الواحة هلل لقدومهما حشد كبير من المدنيين الذين اندفعوا للترحيب بهما. كان الانتقال من مكة إلى المدينة (يقال له باللغة العربية «الهجرة» ومنها جاءت الكلمة الإنكليزية hegira) تاماً. وهذا الحدث البالغ الأهمية الذي وقع في سنة ٦٢٢ بعد ولادة المسيح يشكل بدء التقويم الإسلامي.

كان يمكن اختيار ميلاد الرسول مثلاً لبدء التقويم الإسلامي، أو تاريخ أول وحي وصله من السماء. لكنه تم تفضيل الهجرة على كل البدائل الأخرى لأنها تشير إلى بدء تأسيس مدينة الله على الأرض.

ما أن وصل الرسول إلى المدينة حتى انتظم كلُّ الوجودِ في المدينة مجتمعاً وأفراداً بالاتساق مع تعاليم الله ورسوله. وقد أصبحت الدولة الإسلامية (دار الإسلام) التي قامت في المدينة النموذج الذي ألهب المسلمين لقرون قادمة.

اتسمت الهجرة، في الدين الإسلامي، بمغزى أبعد. فعلى المسلمين الاستعداد، حباً بالله وإخلاصاً للإسلام وأسوةً بالمهاجرين الذين تخلوا عن

بيوتهم وممتلكاتهم في مكة خدمةً لله ونصرةً لرسوله، للتخلي عن أغلى ما لديهم في هذا العالم. وقد غدت هذه الأطروحة بالنسبة للصوفيين مثال الخضوع التام للإرادة الإلهية ونكران الذات.

برزت مباشرةً بعد الهجرة مهمة رئيسية: تنظيم الحياة في المجتمع الجديد ووضع مرتكزات الدولة. في ذلك الوقت كان سكان المدينة يتألفون من طيف كامل من التجمعات. فهناك أولاً المهاجرون الذين فروا من الاضطهاد في مكة، وهناك القسم من أبناء المدينة الذين أعلنوا إسلامهم «الأنصار» وكان عددهم في ازدياد مطّرد. وقد آخى الرسول بين هاتين الجماعتين وغرس في أذهانهم شعوراً بالتكافل لم يختف أثره منذئذٍ من المجتمع الإسلامي.

وكان يقطن المدينة عدد كبير من اليهود؛ وقد فعل الرسول ما بوسعه ليكسب ثقتهم ومودتهم، محترماً دينهم وظروفهم الخاصة. وتحفظ لنا السِيَر التعليمات التي تبين الموقف حيالهم: «جميع اليهود الذين يختارون دعم قضيتنا سيتمتعون بكل الامتيازات التي يتمتع بها المسلمون. فلن يتعرضوا للقمع ولن يجري التحريض ضدهم. ويشكل يهود بني عوف (واحدة من القبائل اليهودية في المدينة) جماعةً واحدة مع المسلمين يجب أن تسود بينهم المودة والعدالة»(*).

بهذا الشكل وُضعت المبادئ التي تحكم العلاقات بين المسلمين ومعتنقي الديانات الأخرى وخصوصاً اليهودية والمسيحية فقد اعترف الإسلام صراحةً بالمصدر السماوي لرسالتيهما. وقد أرسى هذا أساساً

(*) تجب الإشارة مروراً إلى أن القبائل اليهودية الأخرى منحت نفس الحقوق التي مُنحها بنو عوف.

للتسامح الذي، رغم العديد من الأزمات التي لم يكن المسلمون دائماً مسؤولين عنها، روعي لقرون لاحقة ولايزال يراعى حتى اليوم.

لم يمسك يهود المدينة، من جهتهم، اليد التي امتدت لهم، فقد ردّوا، مع استثناءات قليلة، بمعارضة مؤذية، لينتهي بهم الأمر إلى الخيانة ـ وقد غدا وجودهم في المدينة عقبة في وجه تعزيز الدولة الإسلامية وصار من الضروري نفيهم.

بات الصراع بين مكة والدولة الإسلامية الحديثة التي كانت لا تني تقوى وتتطور، أمراً لامحيد عنه، وقد بدأ الصراع المكشوف بعد سنتين من الهجرة. كانت معركة بدر الحدث الأساسي في هذه الحرب، حيث هزم المسلمون جيش العدو الأفضل تسليحاً والذي كان يفوق عديدهم بثلاثة أمثال. برز الرسول في هذه المناسبة كاستراتيجي من طراز رفيع، وكقائد ذي حس إنساني فائق: فعلى خلاف الأعراف التي كانت سائدة في ذلك العصر، أمر جيشه باحترام كل الأسرى المقاتلين الجرحى منهم وغير المقاتلين. ونزل وحي قرآني يذكّر جيش المؤمنين بأن نصرهم لم يكن من صنع أيديهم فحسب بل هو بالأحرى بفضل الله.

وانتقاماً لهزيمة بدر سرعان ما جهّز المكيون هجوماً جديداً ضد دولة الإسلام. فبعد ثلاثة عشر شهراً من بدر زحف جيشهم المدجج والمعزز بفصيل قوي من الخيالة، على المدينة. خرج المسلمون الذين كانوا أقل عدداً بكثير للقائهم واصطدم الجيشان على سهل أُحُد. لم تطبّق تعليمات الرسول بدقة أو تم تجاهلها ببساطة، ولذلك بعد النجاح الأولي الذي حققته قواته هُزمتْ وجرح الرسول نفسه وأعلن أعداؤه أنه قد مات الأمر الذي أثار الرعب في صفوف المسلمين بحيث أنه لم يبق منهم في ساحة المعركة إلا أولئك الذين كانوا على علم بأن الرسول لايزال حياً.

فشل القريشيون في استغلال نصرهم مع أنهم لم يتخلوا عن عزمهم على وضع حد للإسلام وللتهديد الذي يشكله عليهم مرّةً وإلى الأبد. فجهّزوا حملةً ثالثة، الحدث الرئيسي فيها كان معركة الخندق.

تألف جيش المكيين من ألفي رجل وهو ما يشكل قوة هائلة في الجزيرة العربية في تلك الحقبة. وعلى اعتبار أنه ليس بمقدور المسلمين حشد أكثر من ربع هذا العدد للمعركة فقد اختار الرسول أن يحفر خندقاً واسعاً وعميقاً بما يكفي لإحباط مهمات العدو. قرر القرشيون، وقد اصطدموا بهذه العقبة غير المتوقعة وراح مخزونهم من المواد ينفذ شيئاً فشيئاً، أن يوقفوا عملياتهم ويعودوا إلى مكة.

وبالرغم من هذا النجاح الدفاعي الكبير إلا أن أمن المدينة بقي مزعزعاً إذ أن ثمة تهديداً كبيرا يتربص بها من جهة أخرى. فعلى بعد حوالي ١٥٠ كم توجد واحة مزدهرة تدعى خيبر يقطنها يهود متحالفون مع المكيين ضد الإسلام. قبل أن يعقد الرسول عزمه للانقضاض على هذه القوة المعادية، رغب في تنفيذ أمرٍ كان يحمل مغزيين، فهو من جهة يحمل مغزىً دينياً ومن جهة أخرى يشكل إيماءة سلام نحو موطنه القديم: وهكذا فقد فاجأ الرسول صحابته وقرر أن يحج إلى مكة.

اختار الرسول الأشهر الحرم «هدنة الله»، التي كان القرشيون لايزالون يحترمونها كمناسبة لطقس مقدس عظيم يعود إلى أيام ابراهيم، لينطلق نحو مكة سلمياً محاطاً بمجموعة من المؤمنين العزّل. توقفوا في الحديبية، على حدود الأرض المقدسة، ولم يتمكنوا من الدخول لأن حكام مكة رفضوا مرورهم.

في ذلك المكان وقع حدث اكتسبت دلالته الرمزية أهمية خاصة في

نظر اتجاه التصوف الإسلامي: فبينما كان الرسول جالساً تحت شجرة، جدد له كل فردٍ من صحابته عهد الإخلاص والاستعداد للتضحية بأرواحهم.

خرج وفد من المكيين لمفاوضة الرسول وتم التوقيع على هدنة وافق فيها المسلمون على أن لايزوروا الكعبة في الوقت الراهن وبالمقابل وعد المكيون أن يسمحوا لهم بالحج في السنة التالية. ووافق الطرفان على وقف الاعتداءات المتبادلة لعشر سنوات قادمة.

لم يرحب الكثير من الصحابة بهذا الاتفاق الذي بدا لهم ظالماً ومهيناً، غير أن الرسول رأى فيه مصلحةً للقضية الإسلامية. ففي المقام الأول، تفرّغ المسلمون الآن للتحرك ضد خيبر التي كانت تفرض على المدينة نوعاً من حصار اقتصادي. تم احتلال الواحة بسرعة رغم الحصون القوية التي دافعت عنها. وقد أبدى الرسول مرة أخرى الرحمة واللطف في التعامل مع الأطراف المهزومة على النقيض التام مما كان متعارفاً عليه من ممارسات في ذاك الزمن.

حقق الإسلام تقدماً في داخل شبه الجزيرة العربية أيضاً، حيث بدأ يزداد عدد البدو الذين يأتون إلى المدينة معلنين ولاءهم للرسول. بدأ المكيون يشعرون بالعزلة، وفوق ذلك، فقد هاجر قسم كبير منهم بمن فيهم بعض أبناء العائلات الحاكمة لينضموا إلى معسكر الإسلام. وهكذا فقد أدرك زعيم المكيين الأول، أبو سفيان، أنه من الأفضل الاستسلام دون قتال.

في السنة الثامنة من الهجرة، تمكن جيش من المؤمنين من دخول مكة. وقد سقطت المدينة دون مقاومة باستثناء اشتباك وحيد نجم عنه

خمسة عشر قتيلاً. خشي أولئك الذين كانوا قد اضطهدوا الرسول والمسلمين من الانتقام لكن شيئاً من هذا لم يحدث. فقد سامح الرسول كل أعدائه وأظهر لهم شهامةً شدّدت من إيمانهم.

عاد الرسول بعدئذٍ إلى المدينة محاطاً بصحابته حيث واصل ثمة تطوير تنظيم الدولة الإسلامية. وتلقى وفوداً من كل أرجاء الجزيرة العربية ومن سورية حتى، جاءت تعلن قبولها وقبول من تمثلهم بالإسلام والدخول في حلفه.

في غضون عشر سنوات تحولت الجماعة الإسلامية، الأمة، التي لم تكن تتعدى بضع مئات من المؤمنين عندما أرسى الرسول والمهاجرين من مكة أسسها في المدينة، إلى دولة متينة التنظيم بات على القوى العظمى آنئذٍ أن تأخذها في الحسبان. وكان الرسول قد أنفذ رسائل إلى حكام الدول الكبرى المجاورة لشبه الجزيرة العربية وبشكل خاص إلى امبراطوري الفرس وبيزنطة وإلى بطريرك القبط في مصر وإلى النجاشي في الحبشة يحثهم فيها على اعتناق الإسلام. مزّق ملك الفرس الرسالة بازدراء. وعندما بلغ هذا الأمر الرسول اكتفى بالدعاء أن «يُمَزَّقُ مُلكه كُلَّ مُمَزَّقٍ»، وقد تحقق بالضبط ما قاله الرسول بعد بضعة أعوام عندما اكتسحت جيوش المسلمين هذه القوة العظمى وحكمت كل منطقة إيران.

وإذا كان هرقل امبراطور بيزنطة قد تعامل مع الرسالة بشيء من التعاطف، فإن الأمر لم يكن كذلك مع تابعه أمير الغسانيين، إلى الشمال من منطقة الإسلام. فقد أمر هذا بقتل مبعوث الرسول. ونتجت عن ذلك حرب، بعد وفاة الرسول، انتهت بسيطرة القوى الإسلامية على كل المقاطعات السورية التابعة لبيزنطة. في السنة العاشرة من الهجرة أعلن

الرسول نيته في الحج إلى مكة. لاقى هذا الإعلان استجابةً واسعة، فقد قام الرسول (بحجة الوداع) على رأس ١٤٠,٠٠٠ من المؤمنين مكملاً بذلك مهمته الدنيوية.

وأمام الحشد الذي تجمع على سهل عرفة قرب المدينة المقدسة وقف الرسول على تلةٍ تعرف باسم (جبل الرحمة) وألقى (خطبة الوداع) أعطى فيها آخر نصائحه للمؤمنين. وقد كرر عدة مرات «ألا هل بلغت اللهم فاشهد!»(*) وفي كل مرة كان يتجاوب الحشد بصراخ تأييد عاصف. وقد نزلت الآية الأخيرة من القرآن في ذلك اليوم:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (المائدة، ٣).

بقي الرسول في مكة لبضعة أيام فقط غادر بعدها ثانية إلى المدينة. كان قد بلغ من العمر الثالثة والستين وكانت صحته تتدهور. لدى شعوره بدنو الأجل أعطى نصائح إضافية لصحابته يحضّهم فيها بنحو خاص على العدل والتسامح والمحبة. وسرعان ما بات عاجزاً عن قيادة الصلاة الجماعية أو حتى عن الوقوف على قدميه. بعد بضعة أيام فاضت روحه. كان ذلك في ١٣ ربيع الثاني السنة الحادية عشرة من الهجرة الموافق ٨ حزيران ٦٣٢م.

سيطر الحزن والقنوط على المقربين منه. وقد قوبل نبأ وفاته في المدينة بالذعر؛ كثرٌ هم الذين رفضوا تصديقه أو قالوا إن محمداً سيعود حالاً

---

(*) الكاتب يترجم (ألا هل بلّغت؟) بـ «هل أنجزتُ المهمة؟» ويشير في الهامش إلى أن بعض الكتاب يترجمون العبارة بـ (هل نقلت الرسالة؟). م.

ليتابع قيادة جماعته إلى يوم القيامة. أخيراً، تكلم أبو بكر إلى الحشد الذي تجمع أمام المسجد وأعلن بقوة: «من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لايموت».

ثم استشهد الرجل الذي كان الصديق الأقرب للرسول والذي صار أول خليفة في الإسلام، بالآية القرآنية التالية:

﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين﴾ (آل عمران، ١٤٤).

بعد أن أعطينا فكرةً إجمالية عن الحياة العامة للرسول، من المناسب بلا شك أن نعطي لمحة موجزة عن حياته الخاصة، لاسيما أن الحياة الخاصة كانت موضوع تعليقات تنمُّ عن عدم فهم ـ إن لم يكن تحيّز ـ من جانب غير المسلمين. لكي نفهم شخصية محمد علينا أولاً أن ندرك جيداً أنها كانت طبيعية بالكامل، تُحقِّقُ الشرط الإنساني بإجمال وكانت خيّرة بامتياز أيضاً. تتفق كل المصادر على أنه كان على الدوام صادقاً وأميناً وطيباً ومتواضعاً وبسيطاً إضافة إلى كونه يمتلك صفات مثالية في الشجاعة والعزم اللذين كان بحاجة إليهما لاتمام مهمته. وفي حين أنه كان يخضع لله خضوعاً تاماً، كان سيد نفسه في كل الظروف.

صحيح أنه تزوج العديد من النساء وأنه كان يحب النساء ـ كما صرح هو نفسه. إلا أن الاتهام بالحسية والشهوة التي وجهها له الكثير من الغربيين، غير معقول وتكذبه الكثير من الحقائق. يجب أن يتذكر المرء أولاً أن محمداً كان وعلى مدى أكثر من عشرين عاماً زوجاً مثالياً لامرأة تزيده خمس عشرة سنة، أنجب منها سبعة أطفال، لم تُقَيّض الحياة إلا لواحدة

منهم هي فاطمة التي تزوجت من علي وأصبحت منطلقاً لذريةٍ شهيرة. وبعد وفاة خديجة عاش محمد عدداً من السنين في عفّة تامة ولم يعدّد زوجاته إلا بعد الثالثة والخمسين من عمره.

من غير المعقول الادعاء، كما فعل بعض الكتاب الغربيين، أن محمداً استسلم فجأة بعد استقراره في المدينة إلى «إغواءات الجسد». لقد غدا زعيم جماعة لاينفك نفوذها يزداد، وعلى اعتباره قام بوظيفة تشبه بمعنى ما وظيفة المؤسس، فإن معظم الزيجات التي أقدم عليها كانت ذات طبيعة سياسية. ومع ذلك فقد اتسمت هذه الزيجات بخصوبة طبيعتة البشرية، وكان الرسول معجباً بالجمال الأنثوي. لكن ذلك لم يكن بالنسبة له سوى مناسبة لتقديم الشكر لله، وكان هذا، كغيره من جوانب حياته، يكتسب صفةً مقدسة نظراً لاتساق حياة الرسول التام مع تعاليم الله.

وبعيداً عن البعد الأخلاقي لتعدد الزوجات ـ وهو موضوع سنعود إليه في سياقه المناسب ـ يجب أن نلاحظ مغزىً آخر في زيجات الرسول. فعلى اعتباره مؤسساً لعقيدة مقدر لها أن تغدو ديناً عالمياً كبيراً، كان عليه أن يورث أتباعه نماذج من السلوك يمكن أن تشكل أساساً لتشريع مدني من أجل الأجيال اللاحقة وأن يقدم دليلاً يمكن الاعتماد عليه لكل الحالات. وهكذا فإن لكل زواج من زيجاته مميزات خاصة بحيث أنها مجتمعةً تؤسس للقانون الذي ينظم في الإسلام العلاقة بين الجنسين ويرسي قواعد الاستقرار التي لم يتمكن أحد من الاعتراض عليها منذ أربعة عشر قرناً. هذا أحد الأسباب التي تفسر لماذا تمكن الرسول، بالتوافق مع الوحي، من أن يكون لديه تسع زوجات في وقت واحد، مع أن القرآن قصر عدد الزوجات التي يمكن للزوج أن يجمعهن في وقت واحد على أربع.

لايدعو للسعادة أن يجد المرء نفسه متفقاً مع مستشرق مثل مونتغمري واط حين يكتب: «من بين كل الرجال العظماء كان محمد هو الأكثر عرضة للإساءات» ويضيف المستعرب البريطاني بعد دراسة مطولة لحياة وأثر الرسول أنه «من الصعب تفسير هذه الحالة» والتفسير الوحيد الذي يراه واط مقبولاً هو أن المسيحية عاملت الإسلام لقرون طويلة على أنه العدو الألد، وبالرغم من أن الأوروبيين ينظرون اليوم إلى الإسلام ومؤسسه على ضوء أكثر موضوعية إلى حد ما فإن «الكثير من المستبقات القديمة لاتزال قائمة»(*).

على كل حال، قد يكون «من الصعب على غير المسلم وخصوصاً إذا كان ابن بيئة مسيحية أن يفهم المغزى الروحي للرسول ودوره كأسوة في الحياة الدينية والروحية، كما يرى البروفسور سيد حسين ناصر، وهذه الصعوبة «تأتي من واقع أن الطبيعة الروحية للرسول محجوبة بطبيعته البشرية، والتزاماته كمثال وقائد للمجتمع البشري تخفي وظيفته الروحية النوعية»(**).

في هذا السياق من الضروري أيضاً أن نلحّ على حقيقة أن الإسلام لايميّز بين «ما لله وما لقيصر». ففي منظور الإسلام، كل شيء يعود لله، وكل جانب من الحياة الاجتماعية الفردية يجب أن يُقرّ بالتشريع والتقليد النابع مباشرة من الوحي والسنة.

بإكمال الرسول مهمته محققاً تماماً ما يتعلق بهذا العالم وما يتعلق بالعالم الآخر، فقد أعطى المؤمنين إمكانية أن يحققوا شرطهم البشري

---

(*) مونتغمري واط ـ محمد في المدينة ـ مطبعة جامعة اكسفورد.

(**) سيد حسين ناصر، المثل والحقائق في الإسلام.

الدنيوي على أكمل وجه دون أن يخسروا لحظة واحدة توجههم الروحي. وبهذه الطريقة وضع التوازن الرائع الذي يميز المسلم والذي يمكنه من أن يتذوق هذه الحياة الدنيا دون أن ينسى أبداً أننا يجب جميعاً أن نعود إلى الله ونَمْثُلَ أمامه. ويبقى في الوقت نفسه الدليل الروحي لأولئك الذين يبحثون عن الطهارة ويرون أسمى التعاليم والرموز في كل ما يقول ويفعل.

بهذا الظهور الذي يمثل في آن واحد البدائية وكليّة الشرط البشري والذي يجمع كل الرسائل السماوية السابقة في تركيب واحد، تكون الحلقة الرسولية قد أغلقت نهائياً، وما من شيء تمكن إضافته إلى هذا الوحي الكامل والنهائي حتى تقوم الساعة.

# نصوص أصلية

## المهمة الرسولية

﴿يا أيها المدّثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرُّجز فاهجر﴾

(المدّثر، ١ - ٥).

﴿يس(*) * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الحكيم * لتنذر قوماً ما أُنذِر آباؤهم فهم غافلون﴾

(يس ١ - ٦).

﴿طه(*) * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرةً لمن يخشى * تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى﴾

(طه، ١ - ٤).

﴿كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذي

---

(*) يبدأ عدد من السور القرآنية بأحرف معزولة تسمى المقطّعات، كانت مثار تعليقات وتخمينات كثيرة، دون الوصول إلى أي إجماع عن وظيفتها ومغزاها. هناك نوع من الغموض يكتنف هذه الأحرف التي أُعطيت تفسيرات سرّية في كثير من الحالات. في المثالين الواردين هنا أخذت كل سورة اسمها من الأحرف التي تبدأ بها.

أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكّلت وإليه متاب﴾

(الرعد، ٣٠).

## الوحي الأول

جاء شهر رمضان للمرة الخامسة ومحمد معتاد على الاعتزال في غار حراء. مضى من رمضان بضعة أسابيع دون أي حادث يذكر، وذات ليلة قبل السابع والعشرين من الشهر شهد محمد رؤية غريبة: ظهر له كائن من نور وتكلم إليه، كما وصف الرسول فيما بعد: «قال لي أنه الملاك جبريل أرسله الله ليعلمني أنه اختارني لأكون رسوله. علمني الملاك الوضوء وعندما عدت طاهر الجسد، قال: اقرأ ـ فقال الرسول ـ ما أنا بقارئٍ، قال: فأخذني فغطّني حتّى بلغ منّي الجهد ثُمّ أرسلني، فقال: اقرأ، قُلتُ: ما أنا بقارئٍ، فأخذني فغطّني الثّانية حتّى بلغ منّي الجهد، ثُمّ أرسلني، فقال: اقرأ، فقُلتُ: ما أنا بقارئٍ، فأخذني فغطّني الثّالثة ثُمّ أرسلني، فقال: اقرأ باسم ربّك الّذي خلق، خلق الإنسان من علقٍ، اقرأ وربُّك الأكرمُ. فرجع بها رسولُ اللّه صلّى اللّهُ عليه وسلّم يرجُفُ فُؤادُهُ فدخل على خديجة بنت خُويلدٍ رضي اللّهُ عنها، فقال: زمّلُوني زمّلُوني فزمّلُوهُ حتّى ذهب عنهُ الرّوعُ.

محمد حميد الله، (رسول الإسلام).

## محاكاة الرسول

تتضمن محاكاة الرسول أولاً: الحزم مع النفس والكرم مع الآخرين والسكينة في الله ومن خلال الله. ويمكن القول: السكينة من خلال التقوى بأعمق معاني هذه الكلمة.

وتتضمن أيضاً محاكاةٌ كهذه، أولاً الاعتدال في العلاقة مع العالم، ثانياً النبل داخل نفوسنا وفي وجودنا، ثالثاً أن يكون المرء صادقاً من خلال الله وفي الله.

فريثيوف شون. فهم الإسلام.

## المعراج

نقلت قصة المعراج وفق كلمات الرسول نفسه من قبل خمسةٍ وأربعين من صحابته. سنقصر أنفسنا هنا على مصنفات البخاري ومسلم. كان الرسول في البيت ذات ليلة ـ أو في روايةٍ أخرى في فناء الكعبة ـ حين جاءه جبريل ليفتح صدره ويغسل قلبه بالماء. بعدئذٍ أخذه عالياً عبر السموات على مطيّة إلهية (البُراق، إذا درسنا أصل هذه الكلمة نجد أنها مشتقة من البَرق)، في كل سماء من السموات السبعة كان يعرفه جبريل على أحد الرسل العظماء: آدم، نوح، موسى، عيسى، إبراهيم... الخ ثم ارتقيا إلى أن بلغا نقطةً، كان بمقدورهما منها سماع صوت القلم الإلهي يكتب القرارات الإلهية والقدر. قاده جبريل إلى مكان سماوي ما ومن هناك أشار إليه أن يتقدم حيث لم يكن لجبريل الحق بالتقدم أكثر. تابع محمد رحلته السماوية وتشرّف بالحضرة الإلهية: بادله الإله التحية ووهبه الصلوات اليومية: تقنية الاتصال. مر الرسول بشجرة الحدّ (سدرة المنتهى) وبالجنة ومتعها وشاهد الجحيم وشقاءاته. وتوقف في رحلة العودة في القدس حيث رحب به الرسل الأقدمون جميعاً وأمّ بهم للصلاة. بعدئذٍ عاد إلى مكة.

محمد حميد الله. رسول الإسلام

# الفصل الرابع

# المعجزة وتعاقبها في التاريخ

لم يولِ الإسلام، دين الوضوح واليقين، أية أهمية خاصة للمعجزات، على خلاف المسيحية. صحيح أن الأخبار تنقل لنا أن محمداً قام بعدة معجزات، لكن ليس على المرء الإيمان بها كي يؤمن أن محمداً كان حقاً رسول الله وصاحب المهمة الرسولية الختامية.

إن معجزة الإسلام المركزية كانت وستبقى الوحي القرآني. كيف أمكن لتاجر قوافل غير متعلم في القرن السابع أن ينتج نصاً بهذا الجمال الذي لايُجارى، وبهذه القدرة على إثارة المشاعر، نصاً يمتلك معرفة وحكمةً تفوق كثيراً الأفكار المتداولة بين الناس في ذلك الزمن؟ لم يتقدم أحد حتى اليوم بتفسيرٍ متماسك لهذه الحقيقة. ولم تُظهر الدراسات الغربية التي تحاول تحديد «المصادر التي استخدمها محمد» أو التي تحاول اكتشاف الظاهرة السيكولوجية التي مكنت محمد من استجرار الإلهام من «لاوعيه»، إلا تحيز مؤلفيها المعادي للإسلام.

لا بد أن الوحي الإلهي يفوق بالضرورة الفهم البشري ومع ذلك فإن السياق الذي جرى فيه تدوين كل مقطع من القرآن في شكله النهائي

والتام كان واضحاً. في كل مرة كان ينزل جبريل بقطعةٍ من النص كان الرسول يدعو أحد صحابته ويمليها عليه مشيراً إلى المكان الذي تشغله في مجمل الكتاب. بعد ذلك يعيد الصحابي قراءة ما أُملي عليه لكي يدققها الرسول، وفي شهر رمضان من كل سنة كان الرسول يتلو، كنوع من المراجعة، كل ما كان قد أوحي إليه حتى إذٍ. ولهذا من عادة المسلمين تلاوة القرآن كاملاً خلال ليالي رمضان.

في غياب الورق كان النسّاخ يستخدمون الرَقّ وجلد الحيوانات وصفائح الخشب والحجارة المسطحة وحتى ألواح كتف البعير. وقد حُفظت هذه المواد، بعد موت الرسول، لدى عددٍ من صحابته وبدأت تظهر التغييرات. غير أن الخليفة عثمان بن عفان وضع حداً لها قبل أن تصبح قضية جدالية، ومنذئذٍ، بقي النص القرآني ثابتاً على الشكل الذي أوحي به، الشكل الذي لم يكن مثار أي جدل. ويستطيع الآلاف من المسلمين، حتى اليوم، تلاوة القرآن «عن ظهر قلب» وهذا التعبير يصح هنا حرفياً، ذلك أن القرآن، الذي لايمكن لأية ترجمة أن تنقل أصله العربي، يخترق القلب أكثر مما يخترق العقل.

إن التوسع المذهل للإسلام خلال القرنين اللذين أعقبا وفاة الرسول، يعد معجزة أخرى من معجزات الإسلام. فسرعة الفتوحات العربية ومداها الواسع والنتائج التي أنجزتها على نحو خاص، صعق العالم وأربك المؤرخين الذين أكدوا مراراً أن ثمة جانباً «غامضاً ومستغلقاً على الفهم».

لاشك أن التاريخ يقدم أمثلة أخرى عن فتوحات مفاجئة وواسعة ولكن الامبراطوريات التي نشأت بهذه الطريقة تفككت بنفس السرعة التي ولدت بها عموماً، ونادراً ما استمرت بعد وفاة المؤسس. وحدها امبراطورية الإسلام عبرت القرون: الغالبية العظمى من الأراضي التي تم

فتحها في الأطوار الأولى من التوسع لاتزال إلى اليوم في الإطار الإسلامي، أما مناطق مثل إسبانيا وصقلية التي أعاد فتحها المسيحيون في القرون الوسطى ليست إلا استثناءات هامشية.

بالطبع كانت هذه المناطق الإسلامية جميعها مسرحاً للعديد من التغيّرات السياسية، لكن الشيء الأساسي لم يتغير. فالإسلام، الذي تأسست امبراطوريته على مودة القلوب أكثر مما قامت على القوة المادية، كان قد انغرس عميقاً ونهائياً.

أمام هذه الانتصارات العسكرية المذهلة التي سمحت للمسلمين في غضون قرن واحد أن يبسطوا سلطانهم على منطقة تمتد من الصين إلى فرنسا، غالباً ما كان المسيحيون يسيئون للإسلام معتبرينه «دين السيف» وجاعلين من الجهاد، الذي تُساء ترجمته بـ «الحرب المقدسة»، مشروع إخضاع وإجبار على اعتناق الإسلام. في الرد على هذا يجب القول: إن لكل دين طبيعة مادية ما يتعلق مدى ظهورها بالظروف التاريخية، خصوصاً حين تكون جماعة المؤمنين تحت التهديد. إن الدين الذي جعله الله سبيلاً للحقيقة والخلاص لكل الأمم، لا بد أن يجد أعداءً يضطر لقتالهم حفاظاً على نفسه. حتى الدول البوذية كان لها جيوشها وحروبها، في حين أن المسيحية، التي قدر لها أن تكون دين حضارة كاملة وامبراطورية عظمى، لم تتردد في استخدام السلاح ضد من وقف في طريقها.

لقد حاول المسلمون، أسوةً بالرسول الذي طلب من المقاتلين المسلمين احترام الأعداء المهزومين والعزّل، أن تكون الحرب التي يضطرون إلى خوضها إنسانية قدر المستطاع. لقد كان سلوكهم من التسامح والتعقل إلى الحد الذي كسبوا به تعاطف أهالي المناطق التي تصلها

جيوشهم، وقد استقبلوا كمحررين في أكثر من منطقة (مثل بعض المقاطعات البيزنطية).

لايمكن الزعم بأن المقاتلين المسيحيين عموماً قد أظهروا درجة أكبر من الشهامة تجاه أعدائهم من الأديان الأخرى. إن عدداً من الأمثلة التاريخية تشهد على العكس وخصوصاً خلال الحملات الصليبية. فبعد استيلاء غودفري أوف بويون في ١٠٩٩ على القدس، قام رجاله بذبح جميع السكان المسلمين واليهود تقريباً. في حين أن الخليفة عمر بن الخطاب احتل المدينة المقدسة عام ٦٣٨ دون أن يسفك قطرة دم واحدة. وفي عام ١١٨٧ عندما استرجعها صلاح الدين الأيوبي استبقى، على نحو مشابه للخليفة عمر، حياة كل قاطن مسيحي.

دائماً كان الإسلام يقبل، في كل الأراضي التي فتحها، بوجود عدة جماعات هامة تعتنق ديانات أخرى. بالمقابل، عندما استرجع المسيحيون إسبانيا، على سبيل المثال، فقد عانى المسلمون الذبح أو النفي أو الاعتناق الإجباري للمسيحية.

ولكن قبل الشروع بالحملات العسكرية الضخمة التي أخضعت قسماً كبيراً من العالم القديم لحكم الإسلام، اهتزت الدولة الإسلامية بفعل أزمة هددت وجودها نفسه. إنها «الردة» التي أكرهت عدداً من القبائل العربية على التمرد، تحت قيادة أحد الأفّاكين، ضد المدينة. أسند أبو بكر، الخليفة الأول، مهمة إخماد التمرد لخالد ابن الوليد وهو نفس الرجل الذي قاد الخيّالة المكيين ببراعة في أُحد، والذي دعي بعد أن اعتنق الإسلام «سيف الله». وسرعان ما تمت السيطرة على الوضع، الأمر الذي جعل الجيوش المسلمة في جاهزية تامة من أجل هجومها الواسع نحو الشمال.

لاتزال هذه الحملات التي غيرت وجه العالم، تحتفظ بطبيعةٍ محيّرة

تتحدى تحليل المؤرخين. فقد كانت الامبراطوريات التي أخضعها المسلمون متفوقة في كل شيء: في العدة والعديد والاستراتيجية والخبرة. التفوق الوحيد الذي كان في حوزة المسلمين هو إيمانهم وقناعتهم بأنهم يقاتلون في سبيل الله. وفي الحق أيضاً أن الكثير من قادتهم أثبتوا أنهم قادة ذوو مهارات استثنائية. إذا كانت المعجزة هي ما يستعصي على التفسير العقلي فإن الانتصارات العسكرية التي حققها الإسلام كانت إعجازية.

كانت الفتوحات الكبيرة الأولى من صنع خالد بن الوليد «سيف الله» ذاك الذي حقق، بعد أربع سنوات من وفاة الرسول، سلسلة من الانتصارات المذهلة التي وضعت حداً لسيطرة بيزنطة على سورية وفلسطين، وفتح، بفعله هذا، طريق مصر. استسلمت دمشق دون قتال، وأذعنت القدس لعمر بن الخطاب في عام ٦٣٨م وكان عمر قد خَلَفَ أبا بكر منذ فترة وجيزة. وصل الخليفة إلى القدس يرافقه تابع وحيد كان من الصعب التمييز بينهما، ولدى دخوله المدينة كان مثالاً يحتذى باحترامه لأماكن ومقدسات العبادة المسيحية.

بعد فترة وجيزة انطلق قائد مسلم عظيم آخر، عمر بن العاص، على رأس ٤٠٠٠ رجل نحو مصر التي كان سكانها منهكين من الحكم البيزنطي. وفي عام ٦٤٢م استسلمت الاسكندرية. علينا في هذا السياق أن نفتح معترضة لنشير إلى أن الخرافة التي تتهم الفاتحين المسلمين بحرق المكتبة الشهيرة عارية عن الصحة: لقد كانت المكتبة قد بُدّدت قبل وصول العرب بقرون.

في غضون ذلك، كان تقدم الإسلام نحو الشرق أكثر إثارة للإعجاب. كان خالد بن الوليد قد فتح في عام ٦٣٣م قسماً هاماً من الأراضي التي تسيطر عليها الامبراطورية الساسانية في ما بين النهرين،

الأمر الذي دفع الملك الفارسي لحشد جيش صخم معزز بالفيلة. بعد ثلاثة أيام من القتال الضاري في القادسية تمكن القائد المسلم سعد بن أبي وقاص من إلحاق الهزيمة بالفرس والدخول إلى قلب الهضبة الإيرانية. حشد الفرس جيشاً جديداً، دحره النعمان في معركة النهوند التي لم تَقُم للفرس بعدها قائمة. معركة القادسية ٦٣٧م أكدت السيطرة الإسلامية على العراق، فيما معركة النهوند ٦٤٢م بسطت هذه السيطرة على بلاد فارس. وفي عام ٦٤٣م وقف الفرسان المسلمون على أبواب الهند، ولم يكن قد مضى على وفاة الرسول سوى أحد عشر عاماً.

هذا الطور الأول من الفتح يمثل العصر الأبهى في تاريخ الإسلام، حيث التلاحم الذي لاتعتريه الانشقاقات، وحيث المؤمنون يطبقون تلاحمهم في حياتهم تطبيقاً تاماً. في هذا الطور ظهر إلى الوجود دار الإسلام الذي ستنظر إليه كل الأجيال اللاحقة من المسلمين نظرة حنين. لقد نجح الخليفتان أبو بكر وعمر في قيادة الدول الإسلامية. فيما بدأت تظهر مع الخليفة الثالث عثمان (عُيِّن عام ٦٤٤) بوادر الانشقاق، ووجد عدد من الصحابة أنفسهم ـ تحركهم دوافع سياسية ـ في معارضة الخليفة. في عام ٦٥٦م اغتالوه.

ازدادت حدة التوتر عقب اختيار علي بن أبي طالب الخليفة الرابع للرسول. ففي ظل خلافته انشقت فئة عن الجماعة عرفت باسم الخوارج (المنشقين)، الذين لايزال لهم وجود صغير نسبياً كطائفة، في بعض الأقطار الإسلامية. مع ذلك ينظر التقليد السني إلى الخلفاء الأربعة على أنهم قادوا بالحق (راشدين)، وأنهم ذوو فضل لايفوقه فضل، ويضع المسلمون منذ ذلك العهد الخلفاء الراشدين بمثابة القدوة لهم والمسلمون الذين يحملون أسماء هؤلاء الخلفاء أكثرُ من أن يُعدّوا. بعد هؤلاء الأربعة

استمر تقدم الإسلام وغالباً ما كان تَقَدُّمه باهراً، لكنه خسر لحمته الأولى ووحدته.

يكمن الصراع الذي نشأ بين علي بن أبي طالب ومعاوية، حاكم سورية، في جذر الانقسام الكبير الذي شق الإسلام إلى سنة وشيعة، ولايزال هذا الانقسام قائماً حتى يومنا هذا. يعتبر الشيعة أنفسهم شيعة علي. والفرق الأساسي الذي يفصلهم عن السنة يتعلق بأسلوب توالي الخلفاء ودورهم. فالشيعة يعتقدون أن الخلفاء يجب أن يتحدروا دائماً من نسل الرسول وابن عمه علي، وينسبون إلى الخليفة وظيفة غامضة هي وظيفة الإمام أو المرشد المعصوم الذي يعرِفُ «المعنى الخفي» للوحي. سوى ذلك فإن الخلافات التي تفصل الفئتين صغيرة تتعلق بمسائل الإيمان والمذهب وممارسة الدين.

لم يضع موت علي بن أبي طالب، الذي اغتيل على يد أحد الخوارج، واستلام معاوية الخلافة مؤسساً بذلك سلالة بني أمية الحاكمة، حداً للصراع الذي اتخذ عندئذٍ مظهر حرب أهلية حقيقية. تعزز تفوق السنة بعد معركة كربلاء (٦٨٠م) التي انتصر فيها الخليفة الأموي الثاني يزيد. في هذه المعركة فقد الحسين، نجل علي، حياته في واقعة تراجيدية يحملها التقليد الشيعي كذكرى مؤلمة.

مما يثير الإعجاب أن هذه الصراعات الداخلية لم تؤثر على معنويات الجيوش الإسلامية التي كانت تواصل فتوحاتها في كل الاتجاهات معاً. ومن دمشق، حيث أسسوا عاصمتهم، وجد الخلفاء الأمويون أنفسهم يحكمون امبراطورية تتسع باطراد.

في مطلع القرن الثامن استولت الدولة الإسلامية على قسم من آسيا الوسطى بما فيها خوارزم وترانسوكسيانا وأفغانستان ووصلوا حدود

الصين. وفي الجنوب ابتدأت تعزز وجودها على السهل الهندي حيث كان ينتظرها ثمة مصير باهر.

ومباشرة بعد تأسيس القيروان التي سرعان ما غدت أحد مراكز الثقافة الإسلامية الهامة في المغرب، زحف عقبة نحو الغرب خلال المناطق الداخلية الجزائرية، فقطع جبال الريف واستولى على طنجة ومن هناك اتجه نحو فولوبيلسي المدينة الرومانية القديمة قرب مكناس وتابع نحو الجنوب حتى بلغ الأطلسي في منطقة لاتبعد كثيراً عن أغادير. وتقول الأخبار: إنه خاض غمار المحيط بحصانه وصرخ قائلاً: «اللهم اشهد أنه لو كان ثمة طريق لتابعت زحفي!» ثم عاد أدراجه نحو الشرق.

واضح أن زحف عقبة بن نافع لم يكن فتحاً يتيح له احتلال الأراضي التي عبرها وحقق فيها انتصاراته، لكنه أتاح للمسلمين إقامة العديد من الروابط مع شعب شمال أفريقيا حيث اعتنق الكثير منهم الدين الإسلامي منذ الاحتكاك الأول. ولكي يتم امتصاص شمال أفريقيا نهائياً لا بد من حملات جديدة، وهذا ما قام به الحسن ابن النعمان الذي فتح قرطاج وهزم الكاهنة الشهيرة التي حشدت القوى لرد الاحتلال العربي في جبال أوريس. تابع موسى بن نصير هذه المهمة وهو أيضاً أحد أبرز القادة العسكريين في التاريخ.

كان موسى قد أنجز المهمة الكبيرة المتمثلة في تهدئة شمال أفريقيا حين اختاره القدر ليكون فاتح إسبانيا. من الجدير ذكره هنا، أن هذا الفتح، الذي أحضرَ الإسلام إلى أرض شبه الجزيرة الإيبيرية والذي استمر قرابة ثمانية قرون، كان، إلى درجة كبيرة، من صنع البربر حديثي العهد بالإسلام بقيادة طارق بن زياد، أول قائد إسلامي يعبر المضيق الذي حمل

اسمه منذئذٍ والكلمة الانكليزية Gibraltar مأخوذة من الأصل العربي جبل طارق.

كانت إسبانيا في تلك الفترة تحت حكم ملك من القوط الغربيين يدعى رودريك، وكانت سلطته غير مستقرة وكان ثمة عداء بينه وبين إحدى الشخصيات البارزة في النظام القوطي الغربي ويدعى كونت جوليان الذي أقنع المسلمين بمساندته للإطاحة بالملك، بعد أن وعدهم بأنهم سيلاقون الترحيب من السكان، وبالفعل كان الحال هكذا في معظم المناطق التي عبروها باتجاه جبال البيرينيه.

كان قد سبق لطارق بن زياد أن هاجم في ٧١٠م الشواطئ الشمالية للمضيق، لكن الهجوم الحقيقي الذي شنه الإسلام على الأراضي الأوروبية جاء في العام التالي. سبعة آلاف من المسلمين دحروا ما يقارب الخمسة والعشرين ألف من محاربي رودريك قرب كاديز. بعدها لم يبدِ القوط الغربيون أية مقاومة تذكر وانهارت مملكتهم. وبعد عامين جرى فتح كل إسبانيا ما خلا منطقة شريطية إلى الشمال الغربي من شبه الجزيرة. ثم أكمل موسى بن نصير الذي انضم إلى الحملة في عام ٧١٢م، عمل نائبه طارق، بأن أعلن المنطقة الجديدة ملكاً للمسلمين باسم الخليفة في دمشق. وقد اتخذت هذه المنطقة اسم الأندلس وسرعان ما تطورت إلى واحد من أكثر المراكز لمعاناً في الحضارة العربية الإسلامية.

واصل المسلمون، مباشرة عقب هذا النجاح الباهر اندفاعهم ودخلوا فرنسا. قامت طليعتهم في عام ٧١٤م باختراق جبال البيرينية وتقدمت إلى حدود افينيون وليون، واستقروا في ناربون واستولى هذا الشعب الذي كان الأروبيون يسمونه «البدو» على المدن في أكيتين وبروفانس. ولكن اندفاعهم فقد الكثير من عزيمته الأولى بفعل بعدهم الكبير عن قواعدهم

قياساً بالمواصلات التي كانت متوفرة آنئذٍ. جرت معركة بواتييه عام ٧٣٢م، المعركة التي خرج منها كارل مارتيل منتصراً، وكانت هذه المعركة بمثابة إشارة النهاية للتقدم الإسلامي نحو الغرب.

يقيناً، اتسمت هذه المعركة بأهمية كبيرة على المستويين الرمزي والعسكري، لكن سيكون من الخطأ الاعتقاد أن هذا الحدث أثار استجابة سريعة كنست كل القوى العربية الإسلامية عن الأرض الفرنسية. فقد احتفظ «البدو» على مدى أكثر من قرنين ببعض المدن في الجنوب وحوض الرون. ولم يتم اكتساح آخر معاقلهم في فالي ولاغارد فرينيه على الساحل البروفانسي إلا حوالي نهاية القرن العاشر.

انشغل المؤرخون والفلاسفة، مسيحيون ومسلمون، كثيراً في بحث الأحداث المحيطة بمعركة بواتييه التي ختمت عصر التوسع الإسلامي، إذ أوشكت المسيحية أن تختفي نهائياً، هذا أمر لايمكن انكاره. كل الدلائل تشير إلى أن ضرورة تحقيق الحلم الإسلامي الكبير بتوحيد العالم في مجتمع واحد من المؤمنين لم تكن خطة إلهية. لكن هذا الحلم بدا حتى عام ٧٣٢م ممكناً وكان يحق لكل المقاتلين المسلمين أن يعتقدوا أن السيطرة على هذا العالم بالإضافة إلى الوعد بالعالم الآخر أمران مضمونان لهم، لكن بعد بواتييه تحول المسلمون من الهجوم إلى الدفاع ذلك أن المسلمين أصبحوا أسياد مملكةٍ واسعة سيطروا عليها بمأثرةٍ لامثيل لها في التاريخ، الحدث الذي لايزال يحتفظ بالكثير من الجوانب التي تتحدى العقل البشري وتسمح لنا أن نتكلم عنه فننصفه بوصفه معجزة.

بعد التوسع جاء دور التعزيز. قام الإسلاميون بفتوحات أخرى ولكنها غالباً كانت هامشية (كما في صقلية)، في حين أن مكتسباتهم الآن في الغالب لم تكن سوى تعويض عن خسائر لهم في منطقة أخرى.

ففي الوقت الذي طُرد المسلمون نهائياً من إسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر، سيطروا على آسيا الصغرى ودخلوا البلقان، لكن هذه المرة بمحاربين أتراك وليس عرب.

ربما بات النجاح العسكري، في هذا الوقت، وئيداً، بيد أن تقدماً هاماً قد تحقق في اتجاهات أخرى. «فمملكة» الإسلام، دين المساواة، هي مملكة هذا العالم كما هي مملكة العالم الآخر، وعندما تخفق الأولى في دعم فعاليتها على المستوى الزمني لايعيق هذا تقدمها بالضرورة، ذلك أن المجال الأساسي لها هو الروح البشرية.

وهكذا فقد دخل الإسلام بطريقة سلمية تماماً، عدداً من البلدان الآسيوية مثل أندونيسيا (أكبر بلد إسلامي في العالم من حيث عدد السكان). إن الكتل البشرية الهائلة التي دخلت الإسلام في شبه الجزيرة الهندية دخلت ليس نتيجة فعل عسكري بل بشكل عفوي وطوعي. واستمرار تقدم الإسلام في أفريقيا سنة بعد سنة لايمكن ردّه إلا إلى تألقه وقوة جاذبيته.

يجب أن نقرّ أن الإسلام الذي يمارسه معظم المؤمنون كان تأثره طفيفاً نسبياً بالأحداث التي وسمت وغالباً ما زلزلت الحياة السياسية للعالم الإسلامي عبر تاريخه. في هذا الصدد علينا الآن أن نعود ونتذكر بإيجاز تطور مؤسسة الخلافة.

شهدت الخلافة الأموية بعد أن جعلت دمشق مقراً لها، عصراً من البهاء العظيم، لم يقتصر هذا ببساطة على النجاح السياسي والانتصارات العسكرية بل كان أيضاً بفضل ازدهار مفاجئ ورائع في الحضارة والفنون. مع ذلك واجهت هذه الأسرة الحاكمة، وهي سليلة الأرستقراطية المكية، معارضة استفادت من الضغط المتنامي للجماهير الحديثة العهد بالإسلام

والتي كانت تلوم الخلفاء على اتباعهم سياسات لصالح العرب وليس لصالح الإسلام بما يكفي. ففي عام ٧٥٠م اندلعت انتفاضة تحت شعار أن كل المؤمنين أخوة بغض النظر عن أصولهم، أوصلت هذه الانتفاضة السّفاح إلى السلطة وهو من سلالة العبّاس عم الرسول. وجرى ذبح عائلة الخليفة المخلوع. ولم يبق منها على قيد الحياة سوى عبد الرحمن الذي هرب إلى الغرب (الأندلس) وأسس الخلافة الأموية في قرطبة. أقام الخليفة العباسي الأول في بغداد، حيث أضافت سلالته الحاكمة والتي استمرت أكثر من خمسة قرون، بريقاً أكثر روعة على الامبراطورية والحضارة الإسلامية. من الممتع أن نلاحظ هنا أن الخلافة الأموية في قرطبة والتي كانت تنافس الخلافة العباسية في بغداد شهدت أيضاً تطوراً باهراً في كل حقول الفن والمعرفة قياساً بأوروبا المسيحية التي بدت إزاءهما متخلفة وفظّة.

لاشك أن الغزو الخارجي المتكرر لعب دوراً حاسماً بين عوامل أخرى متنوعة في إضعاف ومن ثم انحطاط هذه الحضارة العظيمة. فقد كانت إسبانيا المسيحية تعاني ضغطاً متواصلاً من الجيوش التي ترسلها الممالك الأوربية الأساسية التي حققت في النهاية، مع نهاية القرن الخامس عشر، الريكونكيستا (الاسترجاع). والحملات الصليبية، مع أنها انتهت بهزيمة المسيحيين، ساهمت أيضاً إلى حد كبير في انحطاط الامبراطورية الإسلامية. إلا أن الضربة القاضية جاءت على يد الغزو المغولي.

في بداية القرن الثالث عشر غزا الفرسان المغول بقيادة جنكيز خان، وزرعوا الدمار في أكثر المناطق الآسيوية ازدهاراً من العالم الإسلامي: باكتريا، خوارزم، افغانستان، فارس، وواصل خلفاء جنكيز خان أعمال التدمير من بعده، ففي عام ١٢٥٨م دخل هولاكو بغداد ونهبها وقتل

الخليفة العباسي وأسرته. وبعد أقل من سنتين جاء دور سورية لتشهد الكارثة. وأخيراً هُزم قطيع المغول، بعد وصولهم إلى فلسطين، على يد سلطان مصر الذي كان هو نفسه من أصل تركي.

بمعنى ما يمكن القول إن المنتصرين كانوا أنفسهم مهزومين، فالمغول تبنوا الإسلام شيئاً فشيئاً وأصبح الإسلام مع بداية القرن الرابع عشر الدين الرسمي لدولتهم.

عندما انطلق التركي تيمورلنك (الأعرج) في حملاته زعم أنه يقاتل من أجل الأرثوذكسية السنّية. وهذا لم يمنعه، على كل حال، من ارتكاب أفظع المذابح وأعمال التدمير حيثما سيطرت قواته، ولم يكترث بأي حال بالسكان الذين يعتنقون الدين نفسه. لقد ترك مروره في كل من حلب ودمشق (١٤٠٠ - ١٤٠١) ذكريات فظيعة.

مع ولادة الحقبة المعاصرة، تشكلت أربع دول امبراطوريات هامة في الأراضي الإسلامية، وبقيت قوية بما يكفي كي تتماسك في وجه أوروبا التي كانت في هذا الوقت في كامل اتساعها.

أولاً، كان ثمة الأتراك العثمانيون الذين احتلوا استنبول عام ١٤٥٣ وجعلوها عاصمتهم وأطلق ملكهم على نفسه لقب خليفة. بسطوا سلطانهم على مجمل الشرق الأدنى والأوسط بما فيه معظم أراضي شبه الجزيرة العربية والمدن المقدسة فيها، إلى جانب الأقطار العربية على ساحل المتوسط (باستثناء المغرب). كما ضمّت الامبراطورية العثمانية مناطق واسعة يقطنها المسيحيون خصوصاً في البلقان، ولكنها دخلت حالة التفسخ الشيخوخي وعجزت بالتالي عن تحمل صدمة الحرب العالمية الأولى حيث وقفت إلى جانب ألمانيا في هذه الحرب التي انتهت بتفككها.

على الخاصرة الشرقية للأتراك أسست السلالة الصفوية الشيعية، منذ بداية القرن السادس عشر، دولة قوية كان لها تأثير هام خارج حدودها وخصوصاً في مجال الأدب والفنون. إن مؤسس السلالة الصفوية، شاه اسماعيل، هو الذي جعل فارس القلعة الأساسية للشيعة في العالم الإسلامي وهو الحال الذي لاتزال تحتفظ به حتى الوقت الحاضر.

إلى الشرق أيضاً، أصبح بابور(*)، وهو فاتح كبير يتحدر من سلالة تيمورلنك من جهة الأب ومن سلالة جنكيز خان من جهة الأم، على رأس قائمة الأباطرة المغول اللامعين، فقد بسط سيطرته على أفغانستان وشمال الهند. لقد عرفت الامبراطورية الهندية الإسلامية التي أسسها ازدهاراً أذهل الرحالة الأوروبيين الذين شاهدوها، واستمرت، أقلّه على الورق، حتى إعلان الامبراطورية الهندية البريطانية في منتصف القرن الماضي.

وأخيراً، في أقصى الغرب من العالم الإسلامي (المغرب الأقصى) كان لأوروبا جارة مُهمة تمثلت في دولة المغرب التي لايستهان بقوتها. فخلال القرن السابع عشر تسلم السلطة هناك العلويون سَليلوْ العِترة النبوية الشريفة ولايزالون يحكمون حتى الوقت الحاضر، ألمعهم كان الملك مولاي اسماعيل (١٦٧٢ - ١٧٢٧) الذي طرد الأوروبيين من كل الأراضي المغربية التي كانوا قد احتلوها (باستثناء سيوتا) وأورثنا بعضاً من أروع النصب في الفن الشمال أفريقي.

درج المؤرخون والمستشرقون على التأكيد أنه منذ نهاية العصور الوسطى دخل الإسلام في حالة سبات لم يستيقظ منها إلا مع حلول

---

(*) ظهير الدين محمود مؤسس السلالة الحاكمة المغولية في الهند (١٤٨٣ - ١٥٣٠)م.

الحقبة المعاصرة إثر احتكاكه بالغرب. لهذا الرأي ما يبرره، على الأقل جزئياً، إذا أخذنا بالاعتبار الانحطاط السياسي والعسكري لمعظم الدول الإسلامية، إلى جانب التردي الشامل في النشاط الفني والعلمي والفكري، لكن هذا الرأي يجد نفسه محرجاً أمام حقيقة أن الدين الإسلامي استمر، منذ بداية الأزمنة المعاصرة، يتقدم ويكسب قطاعات بشرية غير قليلة في أفريقيا بشكل أساسي وفي آسيا.

تُظهر الوقائع بوضوح أن حالات اعتناق الإسلام هذه لم تكن بفعل القوة، بل بالأحرى نتيجة جاذبية المجتمع الإسلامي نفسه وبعض ممثليه. الكثير من الأخويات الدينية، التي أحياها الشيوخ الذين كان ينظر إليهم كقديسين، لعبت دوراً جاذباً قوياً للعديد من الأرواح المنهمكة في البحث عن يقينات جديدة.

من المدهش في هذا المجال أن نلاحظ التفارق التالي: احترم العثمانيون عادة نصيحة القرآن التي تقول ﴿لاإكراه في الدين﴾ (البقرة، ٢٥٦) في منطقة البلقان التي ألحقوها بامبراطوريتهم وهكذا بقيت حالات اعتناق الإسلام محدودة جداً في الواقع. وبالمقابل ففي بلد مثل أندونيسيا حيث لم يأخذ الوجود الإسلامي أبداً طابعاً عسكرياً بل دخل بسلام عبر التجار من الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية، كان التقدم سريعاً، والنتيجة أن أندونيسيا اليوم هي أكبر بلد إسلامي في العالم.

بانتشار الإسلام في كل شعوب مالي، في نهاية القرن الرابع عشر كان الإسلام قد وصل الفيلبين حيث حقق تقدماً ممتازاً في الجزر الجنوبية. وقد اضطر الإسبان لدى وصولهم في القرن السادس عشر للقتال ضد المسلمين، كما كانوا قد فعلوا في إسبانيا وشمال أفريقيا. لقد كان من الأهداف الأساسية للحملات الاستعمارية والفتوحات التي حققتها القوى

الأوروبية في الشرق وأفريقيا إضعاف الإسلام الذي طالما جاهدوا بكل عزم لابطال مفعوله.

مع ذلك، لم يتمكن الغرب أبداً، حتى في ذروة توسعه الاستعماري، أن يحول دون ما أسماه «التسلل» الإسلامي إلى مناطق جغرافية جديدة. كسب الإسلام بعض التأثير في الصين بداية الأزمنة الحديثة، وهو الآن قد اكتسب موطئ قدم له في بورما والهند الصينية. واخترق سيريلانكا ـ سلمياً مرة أخرى ـ حيث يشكل أتباعه اليوم أقلية نشطة وهامة.

مع أن الوضع في آسيا يبدو مستقراً تقريباً في القرن الماضي، إلا أن الحال لم يكن كذلك في أفريقيا حيث أنجز الإسلام تقدماً مرموقاً في مناطق واسعة وهو يمتد أكثر فأكثر نحو الجنوب، الأمر الذي أعاق جهود البعثات التبشيرية المسيحية رغم الإمكانات المادية الكبيرة التي بحوزتها والتي لاتقارن مع الإمكانات المتواضعة للدعاة الإسلاميين. من غير الممكن تخمين ظاهرة من هذا النوع إحصائياً، لكن المصادر المسيحية تشهد بالتقدم الإسلامي بشموليته وحجمه بما يكفي لاعتبار هذا التقدم حقيقةً.

تجب أخيراً الإشارة إلى أن الإسلام لايغيب كلياً عن الأمريكتين. أكثر الجماعات التحاماً في سورينام (غويانا الهولندية سابقاً) حيث ربع السكان أي حوالي ٣٤٠,٠٠٠ نسمة من المسلمين ذوي أصل أندونيسي أو هندي أو أفريقي. وفي البرازيل والأرجنتين يشكل السوريون واللبنانيون عدداً هاماً نسبياً، أما في الولايات المتحدة، فإن حركة اعتناق الإسلام ظهرت بين السود «المسلمون السود» وغيرها من الجماعات.

ثمة حدث آخر ذو أهمية في التاريخ الإسلامي يبقى علينا مناقشته.

كما أسلفنا، حمل السلطان العثماني لقب الخليفة. وبعد هزيمة

١٩١٨ والثورة التي اندلعت، ألغت الجمعية القومية التركية الملكية أولاً، ثم مؤسسة الخلافة عام (١٩٢٤). الأمر الذي أثار أصداءً وحركات احتجاج خصوصاً في الهند، حيث اعتقد المسلمون أن أوروبا هي المسؤولة عن تدمير هذه المؤسسة الإسلامية التقليدية. وقد حاول الشريف حسين في الحجاز بعد ذلك بقليل اتخاذ هذا اللقب، لكن المحاولة أجهضت ولم تتكرر بعدئذٍ أبداً.

وهكذا انتهت القائمة الطويلة من الخلفاء الذين تعاقبوا منذ الأيام الباكرة للإسلام. لايزال الكثير من المسلمين يتفجعون على غياب هذه المؤسسة وحتى إذا لم تنجم أية آثار هامة كان يمكن للمرء أن يتوقعها بفعل غياب مؤسسة الخلافة، على المستوى الديني حصراً، فإن البعض لم يتخلَّ كلياً عن فكرة استعادتها.

على الرغم من أن هذه المؤسسة كانت قد تحولت إلى مؤسسة بلا مضمون حقيقي، فإن غيابها كان إشارةً بطريقة ما لاكتمال الإذلال السياسي لإسلام خضع في مناطق عديدة، منذ القرن التاسع عشر، للسيطرة الاستعمارية للقوى الأوروبية المسيحية الأصل. في الواقع، العدوان الذي كانت الشعوب الإسلامية ضحيته لم يكن يشبه بشيء روح الحملات الصليبية، ذلك أن القوة الدافعة فيه كانت نابعة حصراً من الاهتمامات المادية للحضارة العلمانية المعاصرة، وهذا بالضبط ما جعله أكثر ضرراً، فهو لم يقتصر على المواجهات المباشرة الجبهية، كما فعل الصليبيون والمغول، لكنه حقق، بدلاً من ذلك، الأفكار «التقدمية» السامّة التي، رغم بعض المظاهر، كانت معاديةً للإسلام أساساً بما هو عقيدةٌ للحقيقة وطريقٌ للخلاص. في حين أن أعداء الإسلام في القرون الوسطى قاموا بقتل الجسد عبر ارتكاب المجازر المادية، فإنهم في العصر الحديث مارسوا العنف ضد الروح.

قد تعيننا الملاحظات الآنفة الذكر على فهم السبب الذي يجعل حركات «الانبعاث الإسلامية» تميل نحو شيءٍ من الالتباس والغموض. يدعون أنفسهم، وهم سعداء، طليعة النهضة أو «اليقظة» أو «التجديد»، ويطالبون بالماضي المجيد لإسلام يتوقون إلى استرجاع بهائه، وهم في الوقت نفسه يميلون للاعتقاد بأن ايديولوجيا «التقدم» المعاصِرة، التي تطورت خارج السياق الإسلامي، قد تدعم طموحاتهم؛ إلى درجة أنهم في بعض الأحيان يصلون إلى حد إخضاع مجمل تفكيرهم للمفاهيم الاجتماعية والتاريخية للغرب ما بعد المسيحي.

يقيناً، إن نهاية الإمبراطوريات الاستعمارية والمحميات، الشيء الذي جاء خاتمة عادلة لنضالات طويلة ومؤلمة من أجل الحرية، أبهجَ قلوب جميع المسلمين، مع أن «الطفرات» التي صاحبت ذلك أو تبعته لم يكن منها إلا أن قوّت التفوق الايديولوجي للغرب الذي رُفضتْ، وبحق، سيطرته السياسية والمادية. لايزال التحرر أمراً بعيداً عن الإنجاز، وثمة مناطق واسعة في قارة آسيا ذات ثقافة إسلامية قديمة، بقيت حتى فترة متأخرة جداً خاضعة لنظام استعماري لم يتم التخلص منه إلا الآن.

يصعب تقدير عدد المسلمين من سكان الاتحاد السوفياتي السابق. ومهما يكن الأمر، فإن الرقم الذي يعطى عادة وهو ٣٠ مليون، يمثل الحد الأدنى، ويرجّح أن يكون العدد الحقيقي الآن أكبر بكثير. يمكن للمرء أن يسأل، على كل حال، ما إذا كان من الأدق أن نقول عن هؤلاء بأنهم (شعب من مَحْتِد إسلامي) بدلاً من اعتبارهم مسلمين بكل معنى الكلمة، ذلك أنهم أُجبروا إلى حدٍ يزيد أو ينقص، على ترك كل ممارسات دينهم. لم يتردد النظام السوفياتي في اضطهاد الإسلام اضطهاداً عنيفاً ومباشراً، رغم التسامح الذي تمتع به الدين نظرياً من جانب الدولة. مع ذلك فإن

ضراوة الدعاية الرسمية الدائمة التي كانت، حتى فترة قريبة جداً، موجهة ضد الإسلام، تشهد على استمرارية حيويته. في غضون ذلك، فإن الأمة الإسلامية في كل العالم لاتكترث كثيراً بشعوب آسيا الوسطى «الشقيقة» الذين يستحقون بالتأكيد التعاطف والتضامن كغيرهم.

بالمقابل، فإن المسألة الفلسطينية لاتزال تشد انتباه المسلمين، والحقيقة أن لهذا الأمر أسبابه الوجيهة. فالحركة الصهيونية كانت معادية للإسلام عملياً وعلى الدوام بنسبة تزيد أو تنقص، وليست الدولة التي خلقتها هذه الحركة مجرد مصدر سياسات ودعاية معادية للإسلام بل إنها وبسبب آلة الحرب القوية التي بنتها لها الصناعة الأميركية، تمثل تهديداً مباشراً للبلدان والشعوب التي تشكل قلب الإسلام، وحتى لأماكنهم المقدسة. يقدّر لويس ماسينيون في كتابه (حولية العالم الإسلامي) الصادر عام ١٩٥٤ العدد الإجمالي للإسلام في العالم بـ ٣٦٥ مليون. وقد رفع المستشرق الشهير لويس غاردي (في كتابه «الإسلام، الأمس وغداً» الصادر بالتعاون مع محمد أركون بعد أكثر من ربع قرن من كتاب ماسينيون) هذا الرقم إلى ٨٠٠ مليون. هل حقاً تضاعف عدد المسلمين في العالم خلال هذه الفترة الوجيزة من الزمن؟ لايسهل تصديق ذلك، ويميل المرء للاعتقاد أن رقم ماسنيون أقل من الواقع. مع ذلك، فإن إحصاءً مناسباً لعدد المسلمين الآن يُظهر أن حتى رقم ٨٠٠ مليون قليل جداً. فالرابطة الإسلامية العالمية التي مقر قيادتها في مكة، ترى أن الرقم الأكثر دقة هو حوالي المليار.

على كل حال، قد تبدو حسابات كهذه قليلة الأهمية، نظراً إلى أن الإسلام والنظرة التي يولّدها دائماً تشدّد على الجانب النوعي في الأشياء، على خلاف الحضارة المعاصرة التي من ميزاتها الرئيسية أنها كميّة وترضى بالإحصاء. على المرء أن يتذكر قبل كل شيء أن هذا الدين، الذي انبثق

من الوحي الأخير في الدائرة الكونية، يشهد في زماننا توسعاً يتفق مع رسالته المقدّرة له. إنه يمنح، في هذا العصر المظلم، آخر شعاعات نهار يغرب، تعبيراً عن الرحمة، الرحمة الإلهية، التي ستبقى متاحة للناس حتى اللحظة الأخيرة.

مهما يكن الأمر، إذا ظهر أن الإسلام يتقدم من حيث عدد أتباعه، فإنه يبقى معارضاً لايساوم «لهذا العالم». ومن المحتمل أنه يمثّل قوة المقاومة الأشد ضد التيارات التدميرية في الحضارة العلمانية المعاصرة.

مع ذلك، على المسلمين أن لايحملوا في هذا الصدد أية أوهام حول التأثير الذي يمكنهم ممارسته على مجرى الأحداث، فالرسول قال في أحد أحاديثه: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائلٌ: ومن قلّةٍ نحن يومئذٍ، قال: بل أنتم يومئذٍ كثيرٌ ولكنّكم غثاءٌ كغثاء السّيل، ولينزعنّ اللّه من صدور عدوّكم المهابة منكم وليقذفنّ اللّه في قلوبكم الوهن..».

وسيكون الإسلام، في النهاية، وفق حديث آخر، غريباً: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً»، ولكن، كما أضاف الرسول، طوبى للغرباء الذين يبحثون عن علاج لآثام البشر.

# نصوص أصلية

## قتال!

﴿قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولايحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ (التوبة، ٢٩).

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذٍ دبره إلا متحرّفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ (الأنفال، ١٥ - ١٦).

﴿ولاتقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾ (البقرة، ١٥٤).

## نداء إلى أهل الكتاب (اليهود، المسيحيون، الصابئة)

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ (آل عمران، ٦٤).

﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرُهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ (آل عمران، ١٩٩).

## خير أمة

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ (آل عمران، ١١٠).

## القرآن: حقيقة لا يمكن شرحها بالقدرات البشرية

الآن، وقد رأيت الفجوة الواسعة التي تفصل بين حقيقة الإسلام وبين الصورة التي تحملها عنه في الغرب، أشعر بحاجة ماسة لتعلّم اللغة العربية (التي لم أتكلمها) لكي أكون مسلّحاً جيداً بما يكفي للتقدم في دراسة دين أسيءَ فهمه إلى هذه الدرجة. كان هدفي الأول أن أقرأ القرآن وأقوم بتحليله جملة جملة بمساعدة مختلف الشروحات الأساسية لأية دراسة نقدية. أولتْ مقاربتي اهتماماً خاصاً بالوصف الذي جاء في القرآن للعديد من الظواهر الطبيعية، الدقة البالغة لبعض التفاصيل التي يشير إليها الكتاب، الشيء الذي لا يبدو جلياً إلا في النص العربي. ما أذهلني أن هذه التفاصيل تتماشى مع الأفكار المعاصرة، رغم أنه ما كان للإنسان في زمن محمد أن يرتاب في هذا أبداً. قرأت إثر ذلك عدداً من الأعمال التي تدور حول الجوانب العلمية في النص القرآني لِكُتّاب مسلمين، وقد كانت هذه الأعمال عوناً كبيراً لي في أن أقدّر القرآن حق قدره لكنني لم أعثر حتى الآن على دراسة عامة عن هذا الموضوع في الغرب.

أول ما يصعق القارئ الذي يواجه لأول مرة نصاً من هذا النوع هو وفرة المواضيع المطروقة: الخلق، علم الفضاء، شرح بعض القضايا التي تتعلق بالكرة الأرضية، والمملكتان الحيوانية والنباتية، تكاثر الإنسان. وفي حين توجد في التوراة أخطاء جسيمة، لم أستطع أن أجد خطأً واحداً في القرآن. كان علي أن أتساءل: إذا كان القرآن نصاً بشرياً، كيف أمكن لمن

كتبه في القرن السابع بعد الميلاد أن يدون حقائق يثبت الآن أنها تتماشى مع المعرفة العلمية المعاصرة؟ لم يكن ثمة شك إطلاقاً حول ذلك: إن النص القرآني الذي بين أيدينا اليوم هو بالتأكيد القطعي نصٌّ من تلك الفترة، إذا كان لي أن أعبر بهذا الشكل... أي تفسير بشري يمكن تقديمه لهذه الملاحظة؟ برأيي ليس ثمة تفسير؛ ليس ثمة سبب خاص من أي نوع يمكنه أن يفسر لماذا يكون لدى أحد قاطني شبه الجزيرة العربية، في الحين الذي كان فيه الملك داغوبيرت يحكم فرنسا (٦٢٩ ، ٦٣٩)، معرفة علمية في مواضيع معينة سبقتنا بعشرة قرون.

موريس بوكاي، التوراة والقرآن والعلم.

## لا إكراه في الدين

من المفروض فعلاً التخلي عن فكرة انتشار الإسلام بالسيف (أقصد المرحلة المبكرة من الفتوحات العربية)، فقد أظهرت دراسة نقدية للمصادر أن العرب الفاتحين لم يضعوا الشعوب التي انتصروا عليها أمام الخيار بين اعتناق الإسلام أو الموت أبداً. إنهم لم يقدموا هذا الخيار في التعامل مع أهل الكتاب (المسيحيون واليهود) لكنهم ببساطة اعتبروهم شعوباً خاضعة وتقاضوا منهم الجزية متّبعين في ذلك تعليمات الوحي. وفي سياق الحرب جرى التعامل مع زرادشتيي فارس والبراهميين الهنود وبوذيي البنجاب ـ الذين انتصر العرب عليهم ـ على غرار التعامل مع اليهود والمسيحيين في سوريا وفلسطين ومصر وأفريقيا. إن الخيار بين الموت والإسلام لم يطرح إلا على عبدة الأصنام ونادراً جداً ما كان للعرب تعاملاً مع هؤلاء في الفترة المبكرة من توسعهم خارج شبه الجزيرة العربية. وهكذا فإن إملاء العقيدة على الأعداء المهزومين لا يبدو أنه كان ذا شأن كبير لدى الفاتحين العرب.

فرانشيسكو غابريلي: محمد والفتوحات العربية

## احترام الشعوب المقهورة

يُظهر سلوك الخليفة عمر في القدس الاعتدال الذي وسم تعامل الفاتحين العرب مع المهزومين، هذا التعامل الذي يتفارق بحدّة مع ما فعله الصليبيون في نفس المدينة بعد عدة قرون. أراد عمر أن يدخل المدينة المقدسة مع عدد قليل فقط من مرافقيه. وطلب من البطريرك سوفرونيوس أن يصطحبه في الزيارة التي رغب أن يقوم بها للأماكن المقدسة، وأعلن للسكان أنهم آمنون وأنه سيحترم ملكياتهم وكنائسهم وأن المسلمين لن يمارسوا صلواتهم في الكنائس المسيحية.

ولم يكن سلوك عمر بن العاص في مصر أقل رأفةً، فقد أعطى السكان حرية دينية كاملة وعدالة نزيهة للجميع وحماية للمتلكات واستبدل الضرائب الباهظة والتعسفية التي كان يفرضها الأباطرة الإغريق بأتاوةٍ سنوية ثابتة تبلغ ١٥ درهم للفرد. لقد أرضت هذه الشروط سكان الأقاليم بحيث أنهم لم يترددوا في الموافقة ودفعوا الأتاوة سلفاً. لقد احترم العرب بدقةٍ شديدة المعاهدات التي أبرموها وجعلوا أنفسهم مقبولين جداً لدى السكان الذين طالما عانوا من إساءات المندوبين المسيحيين لامبراطور بيزنطة، إلى درجة أن كل مصر تبنت الدين الإسلامي واللغة العربية بحماس. يجب التأكيد على أن هذه النتيجة لم يكن بالإمكان إنجازها بالقوة. ما من شعب من الشعوب التي حكمت مصر قبل العرب أنجزت نتيجة كهذه.

غوستاف لوبون ـ حضارة العرب

# الفصل الخامس

# كيف يكون المرء مسلمًا

التوحيد هو المفهوم الأساس في الإسلام وهو يتضمن الشمولية. والدين الذي يوجه الإنسان نحو التوحيد لا بد أنه يحتوي كل ما ينظم حياته. سيتناقض الإسلام مع نفسه لو أنه ترك أي شيء خارج مداره.

الإسلام إذن يحكم الوجود البشري برمته، كما على المستوى الفردي كذلك على المستوى الجماعي. إنك ترى في كل الأحكام التي يتضمنها وكل الشعائر التي يقضي بها ومجمل النمط الذي يسبغه على أشكال ونشاطات الحياة، بطريقة أو بأخرى وإلى هذه الدرجة أو تلك، المقصدَ الأساسي: ردّ الكثرة إلى الوحدة أو ـ وهو الشيء نفسه ـ ردّ الهامشي إلى المركزي.

هنا أيضاً يظهر الإسلام على أنه النقيض المباشر للثقافة المعاصرة الكميّة التي بتوجهها نحو التشتت والهامشية تجعل من نفسها اغتراباً وإنكاراً للوحدة التي تقدمها هذه الثقافة على شكل كاريكاتير هو اللاتمايز. كل ما في العالم المعاصر يتسم بروح الانقسام (Diabolos هي الكلمة الإغريقية التي جاءت منها كلمة «Devil» الشيطان، وقد حول العرب

الكلمة الإغريقية نفسها إلى «إبليس»، والمعنى الحرفي للكلمة الإغريقية هذه هو «من يقوم بفعل التجزيء»)؛ حتى الذرة (Atom) اللفظة التي استخدمها الأقدمون لتعني (الشيء الذي لا يمكن تجزئته) حُطمتْ وانقسمت، الأمر الذي نتج عنه ما نعرف من عواقب وخيمة. إن الإنسان الذي يعجز، في «عصر الصراعات» هذا، عن العيش بالتناغم مع بقية البشر، يزداد انقساماً على نفسه، ويعجز عن العثور على سلام داخلي في هذا العالم حيث كل شيء يقود إلى الخارج وحيث لا شيء يلمّ، بل كل شيء يبعثر.

إن ممارسة الإسلام تمنح وسائل حقيقية وذات فاعلية في مقاومة حركة التفكك هذه التي تقود إلى دمار الإنسان والمجتمع. إن أحكامه وأعرافه التقليدية تتضمن، بطريقة أو بأخرى، إشارةً للعودة إلى الوحدة. إنها تجعل حياة المسلم تذكّراً متجدداً دائماً للواحد، الشيء الذي تغفل عنه الحياة في العالم المُعلمَن المعاصر بانتظام، على اعتبارها مبدَّدة في الكثرة بطريقة منظمة وعشوائية في آن.

تقوم العبادة الإسلامية على خمسة فروض أساسية تدعى أركان الإسلام: الشهادة والصلاة وصيام رمضان والزكاة والحج.

وتحتل الشهادة موقعاً مركزياً بالنسبة للفروض الأربعة الأخرى التي، بمعنى ما، لا تعدو كونها آثاراً أو تطبيقات للشهادة في حياة المؤمنين والأمة. تتضمن الشهادة الإقرار بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. إن مجرد نطق هذه العبارة يحدد، على نحو نهائي وحاسم، شرط أن تكون مسلماً وتنتمي إلى الأمة.

لا تتخذ الشهادة، في ممارسة الإسلام، شكلاً طقسياً محدداً، إنها بالأحرى تذكر المسلم دائماً في كل حياته بوحدة الله وقدرته

اللامحدودة. تلفظ الشهادة مراراً في أذن المولود، كما يتوجب على المحتضر أن يقولها بقدر ما يستطيع، في حين يكررها الحاضرون له حتى يلفظ نفسه الأخير. ويعلنها المؤذنون عندما يدعون إلى الصلاة خمس مرات كل يوم. كما أنها تقال مراراً لدى ممارسة الشعائر الأخرى، ومن المألوف بالنسبة للمسلمين المتحمسين أو الصوفيين تكرارها في أذهانهم دون توقف، فلا يغفلون لحظةً واحدة عن الذِكر، ذِكر الحقيقة الواحدة.

لكي تكون مسلماً يجب، إلى جانب النطق بالشهادة، أن تلتزم بمجموعة من عناصر الإيمان أو «المعتقدات الضرورية» التي تنبع من الشهادة بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

أولاً: الاعتراف بوحدانية الله (التوحيد) يشتمل على الإيمان بصفاته: خالق، قادر، عليم، عليّ، واحد، ليس له كفواً أحد، يمتلك كل الصفات التي تعبر عنها رمزياً الكلمات الواردة في الوحي، والتي تحتويها جميعاً أولى هذه الكلمات وأكثرهن كمالاً: الله.

بعدئذٍ يتطلب الإسلام الإيمان بالملائكة والكتب السماوية والرسل الذين نقلوا الرسالة السماوية. وثمة آية قرآنية يكثر الاستشهاد بها تُجمل عناصر إيمان المسلم هذه:

﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ (البقرة، ٢٨٥).

يعترف الإسلام التقليدي صراحةً بصحة التوراة (البانتاتوك)(*) والزبور والإنجيل، لكنه يعتبر أن هذه الكتب المقدسة اليهودية والمسيحية

(*) الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم. م.

تعرضت مع الزمن لتشويهات كبيرة طالت المعنى. ولاينفي الإسلام أن تكون كتب الديانات الأخرى، كتلك الموجودة في آسيا، من أصل سماوي قديم.

وكما لاحظنا في الفصل الثالث، فإن محمداً «خاتم الأنبياء» أغلق السلسلة الطويلة من الرسل الذين جاؤوا إما كي يدعوا الناس إلى الرسالة السرمدية للحقيقة الإلهية أو ليذكروهم بها. لذلك من الطبيعي أن يؤمن محمد بهؤلاء الرسل الذين ورد ذكر بعضهم في القرآن وأن يؤمن بموسى وعيسى على نحو خاص.

وهكذا يؤمن المسلمون بالرسالة المقدسة لِـ «ابن مريم» المولود دون تدخل بشري، لكنهم يرفضون فكرة التجسّد، فعبادة المسيح بصفته كائن إلهي وتسميته «ابن الله» يعني في نظرهم خطيئة (الشرك). المسيح، بنظرهم، لم يكن أكثر من خادم رسالة كغيره من الرسل. وفوق هذا، لا يقبل الإسلام القول بأن المسيح قد قُتل على يد الناس؛ فالذي صُلب لم يكن إلا شبيهاً له بالجسد، حسب اعتقادهم. يقول الإسلام إن المسيح رُفِعَ إلى السماء وسوف يعود من هناك في آخر الزمن. أما بخصوص مريم العذراء فهي أيضاً موضوع تبجيل خاص لدى المسلمين حيث يضعونها في مرتبة الرسل.

الإيمان باليوم الآخر والقصاص العادل على ما فعلنا خلال حياتنا الدنيوية واحد من عناصر الإيمان التي يلحّ عليها الإسلام أيما إلحاح، كما أشرنا للتو. فوفقاً لتصور الإسلام عن نهاية العالم، ستكون هذه الخاتمة مسبوقة بسلسلة من الأحداث الكارثية الرهيبة. عندئذٍ سوف يظهر الله بصفته مالك يوم الدين، على حد تعبير الفاتحة في القرآن، التي يتلوها المسلمون في كل صلاة من صلواتهم اليومية؛ وسيُبعث الناس جميعاً

ليظهروا أمامه. سوف يصطف المسلمون وراء رسولهم الذي سيكون لهم شفيعاً حقيقياً.

سوف يمضي الصالحون إلى الجنة حيث ينعمون بكل المتع إلى الأبد، وسيكون قربُهم من الله الذروة القصوى والمكافأة الأميز التي تفوق أية متعة يمكن تخيلها. وستكون النار عقاباً للظالمين؛ مع أن الرأي السائد في الدراسات الدينية الإسلامية، أن الآثام جميعاً ستُغفر في النهاية ماخلا الإشراك بالله.

لا بد أن نضيف إلى قائمة المعتقدات الضرورية كي يغدو المرء مسلماً، الإيمان بالقضاء والقدر، الذي تحدثنا عنه في الفصل الثاني من زاوية علاقته بفكرة الحرية. يتعلق الأمر هنا بـ «الجبرية» المزعومة التي ليست في الواقع، سوى مرادف الموقف الأساسي في الإسلام: الخضوع لله الذي تعلو إرادته على إرادة البشر. كل التاريخ الإسلامي يُظهر أن الوعي بالقانون الإلهي الذي يحكم كل شيء على الأرض لا يَحذف بأي حال النشاط البشري، وأن القبول بالمصير الذي رسمته لا يرادف السلبية.

هذه، باختصار شديد، العناصر الأساسية المكونة للإيمان الإسلامي. وهي مقبولة عموماً من كل أفراد الأمة ولاتثير خلافات ذات شأن. يكف المسلم عن كونه كذلك فقط عندما يرفض هذه العناصر ـ الأمر الذي نادراً ما يحصل في الواقع. المسلم يحتفظ، نظرياً، بكونه مسلماً حتى دون أن يؤدي الفروض العملية التي يوجبها الإيمان.

تجد العبادة، وهي النتيجة الطبيعية للقبول بالعقيدة، تعبيرها الأساس في الصلاة، الركن الثاني للإسلام. الصلاة هي الواجب الديني الرئيس والذي لاغنى عنه، إنها الطقس الديني الحقيقي الوحيد في العبادة الإسلامية. يتطلب أداؤها انضباطاً دقيقاً وصارماً يطبع الحياة بإيقاعه

المقدس ويضع المؤمن، من الفجر إلى الليل، أمام الله فيقيه من الانغماس في الشؤون المادية الدنيوية.

لكي يؤدي المسلم الصلاة، التي لا يترجمها بعض المترجمين Prayer بل Service، يجب أن يكون في حالة طهُر طقوسي. ولكي يكون كذلك عليه أن يقوم، حسب الحالة، بالتطهّر الصغير (الوضوء) أو التطهر الكبير (الغُسل). ثمة قواعد أخرى تتعلق بنظافة جسد وملابس المصلّي وكذلك نظافة المكان الذي سيؤدي فيه واجبه الديني. وقد أُسبغ على كل متطلب من هذه معنىً روحياً ورمزياً؛ فهي على المستوى العملي والمادي تساهم إلى حد كبير في الصحة الفردية والجمعية.

يدعو صوت المؤذن من قمة المئذنة إلى الصلاة الجماعية، مع أنه في الواقع العملي عددٌ كبيرٌ من الناس لا يحضرون إلا صلاة الجمعة، فهذا على الأقل بالنسبة للرجال ـ التزام معترف به. كل شخص حر في أداء الصلوات الأخرى في بيته أو في مكان عمله أو في أي مكان يجد نفسه فيه، مع أن الصلاة في الجامع محبذة أكثر؛ الأمر الذي يعني أن الصلاة في المجتمع الإسلامي الذي لايزال تقليدياً إلى درجة لابأس بها، ليست متغلغلة في الحياة فقط بل إنها تحدد إيقاعها بمجمله.

تؤدى صلاة الصبح مع خيوط الفجر الأولى، وتؤدى الصلاة الثانية صلاة الظهر مباشرةً بعد أن تتجاوز الشمس خط زوالها، صلاة العصر، وهي الثالثة، تؤدى في منتصف ما بعد الظهر، أما الصلاة الرابعة، صلاة المغرب، فبعد غروب الشمس، والصلاة الخامسة والأخيرة، صلاة العشاء، تؤدى مع حلول الليل.

ينبغي أن تلاحظ أن تعاقب هذه الصلوات التي تضع الإنسان أمام الله يجسّد إيقاعاً هو إيقاع الكون، ليس فقط لأنه يتبع الحركة الطبيعية

للشمس، بل أيضاً بسبب التسارع الذي تستلزمه. الفاصل بين صلاة الفجر وصلاة الظهر هو الأطول في حين أن الفترة بين صلاة المغرب وصلاة العشاء هي الأقصر. هذا التأريخ الكوني نفسه نلمسه في حياتنا نحن جميعاً، والظاهرة التي يمكن أن تدعى «تسارع التاريخ» هي أيضاً إحدى تجلياته الواضحة. القرآن نفسه يعبر عن هذا التسارع: فأطول السور تأتي في بداية الكتاب المقدس في حين نرى في النهاية قِصار السور، وهي أيضاً تلك السور التي تلحّ، بإيقاعات لاهثة، على مؤقتية هذا العالم وعلى وشوك قيام الساعة.

على هذا، فإن المسلم الذي يؤدي واجباته الدينية، ليس فقط يمارس عبادته التي تعبر عن خضوعه لله بل أيضاً ينسجم بفعله هذا مع دائرة الصلاة المتواصلة التي مركزها الكعبة في مكة، ذلك أنه في كل وقت يوجد دائماً مكان ما على الأرض حان فيه موعد الصلاة، وبهذه الطريقة لم تتوقف جماهير المسلمين منذ أربعة عشر قرناً لحظة واحدة عن التضرّع للقادر بتلاوة كلمات الفاتحة، السورة الأولى في القرآن والتي هي العنصر الأساسي في طقس الصلاة:

﴿الحمد الله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * إهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين*﴾

لاتقتصر الصلاة على كونها عملية عقلية، إنها تشغل كل كيان المؤمن، وتتضمن أربع وضعيات رئيسية: الانتصاب، الركوع، السجود، الجلوس على العقبين. وتوحي كل من هذه الوضعيات برسائل رمزية وروحية شكلت موضوع تفسيرات تقليدية لاحصر لها. وفق أحد أكثر التفسيرات شعبية، فإن الصلاة الإسلامية هي تركيب من أشكال الخضوع

والعبادة لجميع الكائنات: الأشجار والجبال تنتصب واقفةً، النجوم تشرق وتغرب، الحيوانات في حالة ركوع، وكل كائن حي يستمد غذاءه من الأرض. فعبر الصلاة إذن يستعيد المؤمن الموقع المركزي في نظام الخلق، هذا الموقع الذي قدّره الله للإنسان. الأرواح الفقيرة فقط هي التي لا تستطيع أن ترى في هذه الحركات والوضعيات سوى الشكل وتعجز عن إدراك المغزى، أو ترى فيها نوعاً من التمارين الرياضية التي والحق يقال، لا بد أنها تفيد الصحة.

يستطيع المسلم ـ رجلاً كان أم امرأة ـ حين يعيقه سبب ما عن أداء صلاته في الوقت المحدد، أن يؤجلها إلى وقت لاحق ببساطة. فالإسلام يلائم كل الظروف، وعندما منح الله الإسلام للإنسان لم يشأ بذلك أن يفرض عليه عبئاً ثقيلاً، بل عوض ذلك، راعى كثيراً الضعف البشري. يجب أن نضيف أن العبادة الإسلامية تعرف أشكالاً أخرى من الصلاة زيادة عن الصلاة المفروضة. من المألوف أن يخاطب المسلم ربّه، بعد إنهاء صلاة الفرض، في صلاة وتضرّع فرديين وهو ما يسمى «الدُعاء» الذي يعبر فيه المؤمن عن عمق إيمانه ويتوسل عون الخالق. وثمة عدد كبير من الصيغ الواردة في القرآن كثيراً ما يرددها المسلم وفي يده سبّحه؛ وهناك أيضاً مختلف الابتهالات من مدائح ومباركات للرسول.

أخيراً الذِكر، وهو ممارسة مميزة للإسلام (وتعني حرفياً «التطرق أثناء الحديث» أو «الاستحضار إلى الذاكرة») ويعني تكرار عبارة مقدسة أو ببساطة اسم الجلالة: الله. أحياناً يتم ذلك على إيقاع معين، تقوم به جماعات خاشعة أو على أساس فردي، في شتى ظروف الحياة. يشعر المرء أن ممارسة الإسلام بمجملها هي، بشكل أو بآخر، ذِكر: إبقاء الله في الذاكرة. ثمة أسباب كثيرة تدفع المرء للاعتقاد، أيضاً، أن هذا التوسل

المتواصل من جانب الأمة المسلمة تقدم للبشرية فوائد أفضل بما لا يقاس من تلك التي يقدمها «التقدم» أو «التنمية»، وفي حال أُخمد هذا التوسل سوف يعني ذلك حتماً إشارة دمار العالم.

صوم شهر رمضان، «الركن» الثالث، واجب مطلوب على نحو خاص، يقتضي من المسلم انضباطاً وسيطرة على النفس شديدين في قسوتهما، على الخلاف التام مع التوجه الغارق في الذاتية للعقل المعاصر. الصوم هو الامتناع عن الأكل والشرب والتدخين واستخدام العطور وممارسة الجنس من قبل الفجر حتى غروب الشمس.

تنتهي حالة الامتناع هذه حالما يدعو المؤذن لصلاة المغرب من مئذنته وتتحول ليالي رمضان غالباً إلى حفلات يأكل فيها الناس ما يطيب لهم إلى أن تأتي اللحظة التي يمكن فيها أن ﴿يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾(*). هذا لا يقلل، على أي حال، مشاقّ الامتناع نفسه، خصوصاً عندما يكون النهار طويلاً وحاراً، وعلى الجسد أن يرفض كل الأشياء التي اعتاد عليها. في كل الأحوال، من الضروري أن يجرب المرء الصوم شخصياً لكي يعرف بدقة قسوته. صعب أن لا يعجب المرء بواقع أن الشعوب الإسلامية تواصل، عموماً، أداء هذه الفريضة.

إن الفوائد الروحية ـ وحتى المادية ـ التي يجنيها المسلم من الصوم كبيرة بما يعادل مشاق ممارسته. يلغي مؤقتاً اعتماد الإنسان على الرابطة التي تشدّه إلى العالم المادي، وبذلك يستعيد رباطه مع الله. وعندما يكسر الإنسان روتين حياته الدنيوية اليومية تتاح له فرصة للسيطرة على غرائزه.

---

(*) هذا التعبير وارد في سورة البقرة، الآية ١٨٧. في الواقع يبدأ الصيام في اللحظة التي يمكن للمرء أن تبين خط الأفق الشرقي.

مع أن صوم رمضان واجب يقوم على الطاعة والتقشف الذي يقرّب الإنسان إلى ربه أكثر، غير أنه ليس بلا أثر اجتماعي، فهو يُخضع الفقير والغني إلى الحرمانات نفسها، والنتيجة، وفق العرف التقليدي، إن التكافل الإسلامي يكون أوضح ما يكون خلال الشهر المقدس، حيث يتخذ هذا التكافل شكل صدقات خاصة وأشكال أخرى من السخاء تجاه المحرومين.

ومع أن ممارسة الصوم مفيدة للصحة كقاعدة عامة، هناك تشريعات تسهّل الأمور على المريض والحامل والمسافر والمضطر إلى بذل جهد يتعلق بالجهاد. وعلى من استفاد من هذا الحق أن يعوض الأيام التي فاتته من الصوم، بعدد مساوٍ لها في وقت لاحق من العام، أو، إذا عجز عن ذلك، أن يتصدّق بمبالغ كبيرة حدد الشرع قيمتها.

من الجدير أن نعلم هنا أنه بالنظر إلى التقويم القمري المعتمد في الإسلام، فإن شهر رمضان يتقدم على نحو ثابت عشرة أو اثني عشر يوماً في السنة قياساً على النظام الشمسي. وهكذا فإنه يحلّ في كل الفصول حيثما كان على الكرة الأرضية، وهذا له أثر في التوزيع العادل لمشاقّ الصوم بين المسلمين القاطنين شمال خط الاستواء والمسلمين القاطنين جنوبه.

بالتشابه، وضع الفقهاء والمشرعون ترتيبات خاصة تُتّبع في المناطق القريبة من القطبين حيث يكون الليل، في الصيف، قصيراً إلى درجة يغدو معها الصوم صعباً لا يحتمل. أحد أكثر الحلول شيوعاً يقوم على استخدام التوقيت المعتمد عند خط العرض الخامس والأربعين كقاعدة وتطبيقه على جميع خطوط العرض التي تعلوه.

إن العقول التي لا تهتم إلا بالإنتاجية، والمعدلات الكمية «للتنمية» تدين الصيام على اعتباره «مضاد للاقتصاد»، ذلك لأن هذه العقول عمياء

عن الفوائد النوعية والروحية الهائلة التي تنبع من الصوم. كانت السلطات السوفييتية تفرض إجراءات قمعية ضد المسلمين الذين يثابرون على الصوم.

من الممكن أن يعتبر الأكل أو الشرب أو التدخين على الملأ في ساعات النهار حيث كل الناس ممتنعون عن ذلك، إساءة تستحق العقاب في العديد من الدول الإسلامية. وفي حين تجد الكثير من الناس يلتزمون بهذا الانضباط دون أن تكون لديهم القناعة الداخلية بمغزاه ولكن لمجرد التماشي مع العرف العام، تجد أيضاً الكثيرين لازالوا يدركون أن صوم رمضان هو أحد أبسط السبل وأكثرها نجاعة لكي يتجنب الإنسان أن يكون عبداً للمادة أو للبهيمية.

المعنى الأصلي لكلمة زكاة، «الركن» الذي يعني الصدقة ـ الضريبة الإلزامية، هو التطهير. في الواقع، يتطهر المرء بالتخلي عن ملكيته (قارن مع الآية ١٨ ـ سورة الليل)(*) الشيء الذي يعادل تضحيةً تلغي بذرة الشر الكامنة في الإفراط في الجانب الكمي من الثروة الدنيوية بتحويل قسم منها للمشاركة في القداسة السامية النوعية التي يسبغها الإسلام على مجمل الحياة.

مع ذلك فإن الزكاة في الممارسة، هي أساساً تعبير عن التضامن: وهو فضيلة إسلامية بامتياز. يتوجب دفعها على المواطنين المسلمين الأفراد وتصرف، من حيث المبدأ، على الدعم الاجتماعي، تمييزاً لها عن الجزية وهي الضريبة المأخوذة من أعضاء المجموعات الدينية الأخرى، فالجزية تدخل الخزينة العامة وتستخدم لتغطية نفقات الدولة.

في المجتمعات الإسلامية التقليدية، تتوافق مؤسسة الزكاة التي تعتمد إدارة حكومية أو مجتمعية، مع تعاليم القرآن بدقة:

---

(*) ﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾. م.

﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ (التوبة، ٦٠).

يشير هذا النص بوضوح إلى أهداف التضامن الاجتماعي المتعلقة بالزكاة، حيث تعطي الأولوية لأكثر عناصر المجتمع حرماناً. ومع أن عائدات هذا التشريع المالي يمكن أن تستخدم أيضاً لنشر الإسلام، لا بد أن نلاحظ أن المحتاجين من غير المسلمين قد يكونون أحياناً من جملة المستفيدين من هذه المساعدة المالية، مع أن دفع الزكاة مقصورة على المسلمين فقط.

وضعت معاهد القانون التقليدية كل التفاصيل التي تحكم طريقة دفع الزكاة. فهي تدفع على هذه الأنواع من الثروة: الذهب والفضة، البضائع التجارية والأرباح (بمعدل ٢,٥٪) وعلى المحاصيل الزراعية والماشية (١٠٪).

تجمع الزكاة في معظم الدول الإسلامية اليوم من قبل دوائر الضرائب إلى جانب ضرائب أخرى ذات طابع دنيوي محض. الأمر الذي أدى بالضرورة إلى أن تفقد الزكاة شيئاً من طابعها الإحساني المقدّس. لكن دفع زكاة الفطر في نهاية شهر رمضان لايزال واجباً دينياً يلتزم به معظم المسلمين. مؤمنون كثر أيضاً يمارسون التضامن والإحسان بأشكال أخرى متنوعة من التصدّق الطوعي، ولهذا السلوك وجوده في العرف تحفّزه الآية القرآنية التي تقول:

﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم﴾ (التّغابُن ، ١٧).

الحج إلى مكة، «الركن» الخامس من الإسلام (يضعونه غالباً في المرتبة الرابعة قبل الزكاة)، يعني أشياء كثيرة. إنه، قبل كل شيء، العودة إلى المركز. ذلك أن الكعبة في مكة التي ينظر إليها المسلمون بصفتها مركز العالم، هي بشكل ما إسقاط للمركز المطلق الذي هو الله، على هذه الأرض.

عندما يقوم المسلم بواجب زيارة المكان المقدس الذي يستقبله المسلم في كل صلاة، إنما يجسد بذلك طموحه بالمزيد من الاقتراب من الله. يطلقون على الكعبة نفسها اسم «بيت الله» مع أنهم جميعاً يدركون أنها خالية ولاتحتوي شيئاً مرئياً. هذا من شأنه أن يذكر الحاجّ في حينه أن ما يهم هو العَوْد الروحي الذي ليست الرحلة إلى مكة سوى تعبير رمزي عنه؛ أيضاً قد يفسّر هذا واقع أن الحج ليس إلزامياً بنفس درجة «الأركان» الأخرى، كونه يقتصر على المسلمين الذين يستطيعون إليه سبيلاً.

يشعر المؤمن الذي يصل مكة أنه قام برحلةٍ من المحيط إلى المركز، إلى موضع الوحدة. وهو يؤكد، في الوقت نفسه، وحدة العالم الإسلامي. ذلك لأن الحجاج الذين يمثلون تنوعاً هائلاً من الشعوب والأعراق، لهم انتماء واحد هو الأمة. لحظة اقترابهم من الحَرَم، المكان المقدس الذي يحيط بالكعبة، ينمحي كل ما يميزهم ويفرّقهم، فكل رجل يرتدي الإحرام، ثوب طقسي يتألف من قطعتين من قماش أبيض خشن وبلا خياطة في حين ترتدي النسوة الأبيض أيضاً ووجوههن مكشوفة.

يردد الحجيج الدعاء نفسه الذي قاله الرسول وصحابته حين وصلوا الكعبة قبل أربعة عشر قرناً، الدعاء الذي كرره الحجاج منذئذٍ وحتى اليوم:

(لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لاشريك لك).

يشتمل أداء الحج على سلسلة من الطقوس تحمل معنىً رمزياً وميتافزيقياً عميقاً، معظمها أقدم من الإسلام نفسه. أولها الطواف، الدورات السبع حول الكعبة، هذه الدورات علامة الوصول إلى المركز وتقديم الإجلال الذي يستحقه. بعد ذلك يأتي السعي، وهو سير سريع بين تلّتيّ الصفا والمروة (تقعان اليوم داخل حدود الحرم) يحيي ذكرى البحث اليائس لهاجر، زوج إبراهيم، عن الماء من أجل ابنها إسماعيل الذي كان على وشك الموت عطشاً في الصحراء حتى أنقذه التدفق الإعجازي لبئر زمزم الذي لم ينقطع منذئذٍ عن الجريان.

تتم الشعائر الختامية للحج على سهل عرفة أسفل جبل الرحمة. قرب هذا الوادي الواسع الجاف يتم الأضحى (التضحية الأعظم)، وهو أيضاً إحياءً لذكرى ابراهيم الذي، من طاعته التامة لأمر الله، استعد كي يقدم ابنه قرباناً (وفق الإسلام الابن المقصود هنا هو إسماعيل وليس إسحق) ولكن الابن فُديَ بكبشٍ على نحو مُعجز. يحتفل الحجاج بهذا الحدث مضحّين بالآلاف من رؤوس الغنم يوزع لحمها على الفقراء، وحيثما يوجد مسلمون يجري الطقس نفسه، فهذا اليوم، العاشر من شهر الحج، هو العيد الأكبر (عيد الأضحى) في التقويم الإسلامي.

تجري الطقوس الأخرى من الحج في ضواحي المدينة المقدسة. في (منى) يرمي الحجاج الحصى على ثلاثة أعمدة تمثل الشيطان الذي تبرّأ منه ابراهيم حين كان في هذا الموضع.

يكشف هذا الوصف السريع لشعائر الحج أن إبراهيم يشكل مرجعية دائمة خلال الحج. يجدر بنا أن ندرك أن الأماكن المقدسة الإسلامية ترتبط أيضاً بذكرى آدم. يقول التقليد إنه بعد أن طرد الله أول زوج بشري من الفردوس انفصلا وتاها في الأرض إلى أن سمح الله برحمته أن يلتقيا

في عرفة. ويقال أيضاً إن الكعبة الأولى بناها آدم ولكنها دمّرت بالطوفان إلى أن أعاد ابراهيم بناءها ثم استعادها محمد لدين التوحيد النقي الذي كان قد ابتعد عنه الناس منذ أجيال عدة.

وهكذا فإن من يحج إلى المركز، الذي تمثله على الأرض مكة، لا يؤكد فقط انتماءه إلى أمة محمد، بل يؤكد أيضاً صلته بإرث إبراهيم وبالتالي بإرث آدم. إنه يدرك، وهو على الأرض التي أنزل الله فيها رحمته مرةً ثانية على أول زوج بشري، بأنه يغتسل من خطاياه، فيوم عرفة هو يوم الغفران.

في نهاية موسم الحج يقصد الحاج المدينة المنورة ليزور قبر الرسول. يفعل ذلك بشعور بالانبعاث الروحي وهو في ينبوع الوحي الكوني. ليست زيارة المدينة جزءً من الفرض ومع ذلك فإن الغالبية العظمى من الحجاج يقومون بها. وقسم كبير منهم يذهب إلى القدس إذا سمحت له الظروف، فالقدس هي ثالث المدن الإسلامية المقدسة، هناك يتأمل المسجد الأقصى قرب الصخرة المقدسة التي صعد الرسول من عليها عبر السموات السبع في ليلة المعراج، وهناك يقدمون فروض الاحترام لرسل إسرائيل ولعيسى المسيح وأمه اللذين كانا أيضاً من رسل الحقيقة الخالدة.

المسلم الذي يحج يحمل بعد ذلك اسم حاج، ويعود إلى وطنه وقد أصبحت له مكانة جديدة. تحتفل قريته أو حيّه بعودته لأنه قد عاد مشبعاً بالبركة، هذا الأثر الروحي الحميد الذي ينبعث من المركز والذي بواسطته يعيد أبناء آدم ارتباطهم بأصلهم الخالد.

أدى التطور في وسائل الاتصال إلى زيادة هائلة في عدد الحجاج، خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية. فوفقاً لأكثر المصادر صدقيةً، يتراوح

عدد الحجاج بين مليون ونصف ومليونين، علماً أن إحصاء عدد الحجاج ليس بالأمر السهل. ولكن يمكننا أن نضيف إلى عدد الذين يحجون «الحج الكبير» الذي يصادف موعده سنوياً في شهر «ذو الحجة»، عدد أولئك الذين يؤدون «الحج الصغير» أو العمرة، في بقية أشهر السنة. تقتصر العمرة على زيارة الحرم وأداء الطقوس المتعلقة به. صحيح أن ثواب العمرة أقل، غير أنها ماتزل تجذب عدداً متزايداً من الزوار الأتقياء، الذين يرفعون عدد الحجيج إلى عدة ملايين في السنة.

يمثل جمهور الحجيج هذا كل العالم الإسلامي. بكلام آخر: إنهم يمثلون عملياً كل عرق على سطح الأرض. بلدان مُعَلْمَنة في الظاهر، مثل تركيا، لا يقل فريق الحجاج منها عن أي بلد آخر. يشكل هذا الأمر مع الحماس الملحوظ لدى الحجاج شهادةً أخرى على مقاومة الإسلام للانحطاط الحالي للأديان.

ليس الجهاد واحداً من «أركان» الإسلام الخمسة، مع ذلك يعتبر الجهاد أو «الحرب المقدسة» - يفضل المسلمون أن يترجموها (الجهد الجماعي) - أحد الفروض المُقرّة. وهو يمثل، في الواقع، واجباً يشبه إلى حدٍ ما الفرض الذي تمارسه الدولة الحديثة على مواطنيها في وقت الحرب، حيث يُطلب من كل مواطن المساهمة في الدفاع عن وطنه، وحتى التضحية بحياته من أجل وطنه. التضحية نفسها مطلوبة بالعُرف من المؤمن دفاعاً عن الإسلام. مع ذلك لا بد من توفر عدد من الشروط لكي تعلن السلطات الدينية الجهاد رسمياً. هذه الشروط نادراً ما تتوفر في الوقت الحاضر، ولذلك فإن تفسيراً واسع الطيف يعطى للجهاد بحيث يغطي كل أشكال النشاط والنضال في سبيل الحفاظ على الدين وتقدمه. يمكننا أن نستذكر في هذا السياق الحديث الذي حدد فيه الرسول لدى عودته من

إحدى الغزوات، حالة الحرب ضد الأعداء الخارجيين على أنها (الجهاد الأصغر) قائلاً إن (الجهاد الأكبر) هو جهاد المسلم ضد نفسه(*).

تتقيد الشعوب الإسلامية عموماً بختان الذكور، وهو تقليد إبراهيمي على نحو خاص، ذلك لأن المشرّعين نظروا إليه على أنه ضروري ولكنه غير ملزم. لم ينزل به نصّ قرآني، كما أنه ليس إلزاماً ضرورياً بالنسبة لمن يعتنق الإسلام حديثاً.

كما يشتمل الإسلام على سلسلة من الأعراف والعادات بدرجات متفاوتة من الأهمية، تترك، إضافةً إلى «الأركان»، بصماتها على حياة المسلم الفرد وعلى حياة المجتمع الإسلامي. إن تحريم لحم الخنزير والمشروبات المُسكِرة من أهم التدابير الاحتياطية الإسلامية التي تستدعي الذكر.

لايرى الغربيون، ولاحتى المستشرقين، في هذين التحريمين شيئاً سوى الجانب الصحي، إلا فيما ندر. علماً أن لهما مغزىً أعمق بكثير. إن الامتناع عن لحم الخنزير، هذا الحيوان القذر الكريه الذي يأكل كل شيء تقع عليه عيناه، يذكر المؤمن بضرورة أن يصون نفسه ليس فقط على مستوى الطعام، بل أيضاً من كل ما هو دنس في الخليقة. لاشك أن لهذا الأمر فوائده الصحية، لكن الجوهري في الموضوع ليس هنا.

فيما يتعلق بتحريم الخمر وغيره من المنشطات والمخدرات، فهذا يعكس ما يتطلبه فرض الصلاة من المؤمن، فالصلوات الخمس اليومية تستدعي أن يكون المؤمن قادراً على الدوام أن يخاطب ربه دون أن يفقد

(*) لايوجد هذا الحديث في معظم المجامع الموثوقة لأحاديث الرسول، وقد شكك بعض الباحثين بصحته، ونسبه البعض الآخر إلى أحد صحابة الرسول، مع ذلك فإن لهذا الحديث أهمية كبيرة في الحياة الروحية لأجيال عديدة من المسلمين.

السيطرة على نفسه لحظة واحدة. يقيناً، تغنى الشعراء، كابن الفارض، بالسكر والخمرة، لكن بمعنى صوفي حصراً، فالخمرة الوحيدة المسموحة في الإسلام هي خمرة الفردوس.

يجب القول إن هذه التحريمات لا تمتلك صفةً مطلقة، فهنا، كما في كل ممارسة في الإسلام، الأساس هو نيّة المؤمن. والقرآن واضح تماماً في هذا الموضوع:

﴿إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلّ به لغير الله فمن اضطر غير باغٍ ولاعادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ (البقرة - ١٧٣).

لا بد لنا أن نتطرق لتحريمين آخرين: الأول هو تحريم أخذ الفائدة على القروض على أنه ربا، مهما كانت الفائدة منخفضة، والثاني يتعلق بألعاب الحظ (الميسر) التي يسميها القرآن «عمل الشيطان».

تناول الكثير من الكتّاب، قديمين ومعاصرين، موضوع تحريم أخذ الفائدة في شروحات كثيرة، ورأى العديد منهم أن من المناسب إهمال الجوانب الاجتماعية والأخلاقية وحتى الفوائد الاقتصادية العملية لهذا التحريم. سنقتصر مرّةً أخرى على لفت الانتباه إلى أن القواعد التقليدية الإسلامية، التي تقع أهدافها في مستوىً أعلى بما لا يقاس من أية فكرة عن «التطور» أو «التقدم» الاقتصادي الاجتماعي، تقي الإنسان من استعباد العالم المادي والكمّي. أكثر من ذلك، لاشك أن استحالة توليد الفائدة من القروض يحدّ إلى درجة كبيرة من قوة المال، ويطرح مشاكل عويصة على البلدان المسلمة في الوقت الحاضر، خصوصاً تلك البلدان التي لها علاقات وثيقة مع النظام الاقتصادي العالمي غير الإسلامي في الأصل، وسيكون من المبالغة الإدعاء أن الحلول التي تبنّتها هذه الدول أرضت تماماً متطلبات الإسلام الحنيف. ولكن مهما يكن من أمر، فإن تحريم الربا في مجتمع

إسلامي معياري لم تفسده التيارات الحديثة بعد، إذا ما اقترن بفرض الزكاة، يشكل عاملاً إيجابياً في توازن الحياة الاقتصادية التي لا تستطيع السيطرة على نتائجها ولكنها يجب أن تقبل بموقعها في هرمية القيم التي تنسجم مع المنظور الإسلامي.

أما بخصوص القمار، وهو أمر يتنافى بوضوح مع روح المسؤولية التي يحاول الإسلام دائماً غرسها في أذهان أنصاره، فإن تحريمه توجّه أساساً ضد عادة كانت سائدة لدى العرب قبل الإسلام، فكان أحدهم يلجأ، قبل اتخاذ أي قرار هام، إلى التنبؤ بواسطة أسهم الكهانة. ومنه توسع التحريم ليشمل كل أشكال المقامرة بما فيها اليانصيب والرهان على الخيل. سباق الخيل غير محرّم كشكل من الرياضة، على العكس فقد شجع الإسلام هذا الضرب من الرياضة، طالما أن الرسول نفسه لم يترفع عن الدخول في سباق مع صحابته وفقاً لأحد الأحاديث.

لقد كان موضوع العلاقة بين الجنسين ودور النساء في العالم الإسلامي محطّ تفسيرات مغلوطة من جانب الغربيين، خصوصاً وأنهم يدّعون الآن تحقيق المساواة التامة بين الجنسين ـ وهو الشيء الذي لا يمكن، بأي حال، المباشرة به دون خيانة وظيفة كلا الجنسين في نظام الكون. في الواقع، حسّن الإسلام إلى حدٍ بعيد نصيب النساء قياساً بما كان الأمر عليه في مجتمعات ما قبل الإسلام، أو حتى قياساً بما كان سائداً في التجمعات اليهودية والمسيحية، فقد أقرّ الإسلام حقوقاً جديدة (كحق الأنثى في الميراث) إضافة إلى الضمانات الشرعية التي تتعلق بدور المرأة كزوجة وكأم. ومن المعروف أن مثل هذه الحقوق لم تُمنح للنساء في الغرب حتى الدستور النابليوني. إن أفضل تشخيص لدور المرأة في الإسلام تقدمه لنا كلمة (الكرامة)، مقارنةً بانحطاط المرأة على إثر الهوس المعاصر

بالجنس. إن كرامة المرأة مصانة في كل مجتمع إسلامي حقيقي، رغم أنانية الرجال وعدم تأديتهم تدابير الإيمان (إن لم تكن التدابير بحرفيتها فعلى الأقل بروحها).

صحيح أن الإسلام أقرّ مبدأ تعدد الزوجات، وأن لكل مسلم الحق في أن يجمع بين أربع نساء على الأكثر، غير أن هذا لا يضير ما سبق من كلام عن صيانة كرامة المرأة في الإسلام. القرآن، على كل حال، لم يعط هذا الحق للرجل دونما تحفظ:

﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ (النساء، ٣).

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ (النساء، ١٢٩).

إن هذا التسامح، الذي يُفهم منه أن الزواج الأحادي مفضلٌ في الأساس، أعطى التشريع مرونةً كافية للاستجابة إلى طيف واسع من الأوضاع التي يمكن أن يطرحها المجتمع البشري. كما أنه كان، في واقعيته، من مصلحة النساء اللائي وجدْن في العالم الإسلامي إمكانية الانضمام إلى عائلة بدل أن يُتركن مهجوراتٍ أو «على الرف». مع ذلك، لا يجوز تخطي الحدود العريضة، التي رسمها الإسلام، فأي علاقة بين رجل وامرأة خارج الإطار الشرعي تعتبر زِنى: وهو فعل مُلام وله عقوبته.

لقد أباح الإسلام، مدركاً كعادته الطبيعة البشرية، الطلاقَ، مع أن ثمة حديث يصفه بأنه (أبغض الحلال إلى الله). في هذه النقطة، كما في غيرها، يتجنب الإسلام أن يحمّل الإنسان ما لا طاقة له به، ويدّخر مطالبه الإطلاقية، ليس لما يتعلق بالأخلاق، فالأخلاق نسبية بالتعريف، بل لما يتعلق بهيمنة الإيمان.

إن جملة القواعد التقليدية التي أجملنا القول فيها آنفاً تؤلف الشريعة، أي قانون الوحي الإلهي الذي يجب أن يخضع له كل من يعتنق الإسلام. وهو يشمل كل أوجه الحياة ويوجّه كل نشاطاتها. ولذلك فإن المقدّس يحلّ في الحياة ويجعلها على اتساق مع إرادة الخالق.

إن تفسير الشريعة وتطبيقاتها على الأفراد والمجتمعات هو موضوع الفقه، الذي يستلهم، ككل النظم الدينية غير الوضعية، أربعة مصادر أساسية: أ ـ القرآن. ب ـ سنة الرسول كما يحددها مجموع الأحاديث. جـ ـ القياس في الحالات التي لا يغطيها القرآن والسنة بشكل مباشر. د ـ الإجماع أو ما تجمع عليه طائفة المؤمنين التي (لا تجمع على ضلالة) كما قال الرسول في تعليماته.

يقول التقليد إنه ينبغي البحث عن حلول أية مشكلة على أساس هذه المصادر بمساعدة الإجتهاد «الجهد الشخصي». وتقتصر ممارسة الاجتهاد على الضليعين في الفقه ممن يمتلكون المؤهلات الضرورية لذلك، فالإسلام لا يعرف «الاختبار الحر» (كما هو موجود في المسيحية البروتستانتية مثلاً) ولايقبل أن يكون الناس قادرين على تعديل القانون الإلهي بما يوافق ظرفهم أو بما ينسجم مع تيارات عصرٍ ما. وللتأكيد على حقيقة أن الشريعة توجد بصيغتها النهائية، وإنها ستحافظ على هذه الصيغة إلى يوم القيامة؛ ثمة رأي لدى بعض الفقهاء يقول إن (باب الاجتهاد مغلق) ويقف هؤلاء الفقهاء ضد أي محاولة قام بها التحديثيون منذ القرن التاسع عشر بهدف إصلاح محتوى وتطبيق القانون الإلهي بجعله يتلاءم مع تغيّر العصور.

إن القانون الإسلامي، باعتماده هذه المبادئ، يشتمل على نظام مهيب متقن، ترك بصمته على كل شعوب الأمة الإسلامية. إنه يدمج

عدداً من التقاليد القضائية التي تتوافق مع التقسيمات الأساسية داخل الإسلام، ومع تيارات معينة ولدت خلال القرون الأولى من تاريخه.

يتوزع المسلمون السُنّة، الذين يشكلون أكثر من أربعة أخماس المسلمين في العالم، في غالبيتهم إلى أربع مدارس تشريعية أو أربعة مذاهب، كل مذهب يقرّ بشرعية المذاهب الأخرى. وقد أسس هذه المذاهب كل من الأئمة: أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل الذين عاشوا خلال القرنين الثاني والثالث من الهجرة، وتتمايز هذه المذاهب عن بعضها البعض باختلافات طفيفة حول تفسير وتطبيق أحكام الشريعة، وليس ثمة فوارق أساسية تفرّقها. تدرَّس هذه المذاهب الأربعة جميعاً في جامعة الأزهر في القاهرة التي تعتبر قلعة الأرثوذكسية السنية رغم أنها تأسست في الأزمنة الغابرة على يد الشيعة.

الشيعة أيضاً يتبعون مذاهب في فلسفة التشريع صادرة عن تقليدهم الخاص، وقد لعب الأئمة دوراً محدِّداً في تطويرها. يطبق الخوارج، هذه الأقلية الصغيرة ولكن القديمة والتي يشكل الإباضيون أهم مجموعاتها، تفسيراً حرفياً للقانون التقليدي ذي الأصل السماوي.

إن مختلف هذه المذاهب، على نحو الإجمال، تعلّم الشريعة نفسها وكل منها تبرز جوانب معينة تتفق مع الأمزجة والميول المتفارقة التي ظهرت عبر القرون بين الشعوب المسلمة. وتتعلق الاختلافات الأكثر بروزاً بين هذه المدارس بقضايا الشكل الخارجي للممارسات الدينية إضافة إلى تطبيق القانون بمعناه الضيّق. في المجال العام للأخلاق لا يمكن أن تجد بينها اختلافات لها مغزى حقيقي، لذلك يمكن للمرء أن يتكلم عن أخلاق إسلامية تتألف من مجموعة مبادئ ملزمة لكل المسلمين.

إن مجمل النواظم الأخلاقية النابعة من الشريعة والتي اقتضى منا

الأمر أن نذكر عدداً من أكثرها أهميةً وتميّزاً، ضمنت لقرون طويلة استقرار وانسجام المجتمع المسلم ومنحته بنيته وتماسكه. هذه القواعد التي لم تأت من سياقات تطور اجتماعي بل أتت بأمر إلهي، تخلق الشروط المناسبة للإنسان كي يحقق وظيفته الروحية وكي يزدهر كمخلوق دنيوي. فهي لم تفتقد البعد الواقعي طالبةً المستحيل، كما أنها لم تتجاهل هشاشة الطبيعة البشرية.

يطالب الإسلام بالإخلاص والإستقامة قبل أي شيء آخر لدى تطبيق القانون الإلهي. إن من التعاليم الأساسية للرسول، والتي نراها في بداية أغلب مجموعات الحديث، قوله: «إنما الأعمال بالنيات».

لهذا المبدأ أهمية استثنائية في زمن تطرح فيه ممارسة الشريعة مشاكل غير معهودة للأجيال السابقة، كونها نتاج فضاء عام مختلف، نتاج ميول مدمّرة ومعادية لكل قانون إلهي قديم، ميول تقيّأها العقل المعاصر في كل مكان. إذا لم تُتح للمؤمن فرصة الالتزام بكل القواعد فإن نيّته تقي روحه وهذه ستلقى حساباً عادلاً، من هنا تأتي أهمية هذا المبدأ.

يجب أن نعترف أن العالم الإسلامي في كل مكان لا يتّبع الشريعة كما كانت تُتّبع قبل جيل أو جيلين سابقين. من النادر، وهذا أمر يزداد باطّراد، أن تجد دولة تطبق الشريعة الإسلامية بشموليتها؛ معظم البلدان التي لا تزال تسمي نفسها إسلامية تطبقها جزءاً جزءاً وتمزجها بعناصر قانونية مستعارة من الغرب.

وعلى المستوى الشخصي والأُسري، تواجه الأخلاق التقليدية المستقاة من الشريعة تحدياً أكبر وخصوصاً من الجيل الشاب الذي تخلى عن العادات القديمة تشبّهاً بالشباب الأوربيين والأمريكيين، ويجد صعوبةً متزايدة في قبول الانضباط والسلطة من أي نوع كانت. لقد تغيرت

الأخلاق بما يخص المرأة أيضاً، وثمة ميل واضح لرفض المعايير والعادات التي ضمنت على مدى أربعة عشر قرناً كرامة المرأة وأمنها في البيئة الإسلامية. يمكن لهذا الميل، أن يتخذ شكل التمرد ضد بنية العائلة التقليدية التي صانت استقرار المجتمع الإسلامي طوال هذه الفترة، رغم أن هذا الميل أقل خبثاً من حركة «تحرير النساء» الغربية.

وجدت هذه الاتجاهات سنداً لها في الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية التي عصفت بالبلدان المسلمة بعد الحرب العالمية الثانية، وفرضت نماذج جديدة من الحياة تتعارض عموماً مع التقليد الإسلامي. ليس بمقدورنا أن ننكر أيضاً أن الشريعة، نمط الحياة البشرية المتسقة مع إرادة الله، تعاني في الوقت الحاضر ذبولاً لا مثيل له منذ زمن الرسول. بالطبع هناك عدد كبير من المؤمنين الملتزمين بها بإخلاص، لكن ممارسة الشريعة في عالم تغزوه باستمرار روح العدم والتمرد، تغدو بحاجةٍ إلى الكثير الكثير من الثبات والجهد.

لن يذهب سدىً إخلاص الذين حافظوا على إخلاصهم، فالحديث الذي يتكلم عن فترة الانحطاط التي ستعمّ الأرض لا محالة، يقول: «إنّكم في زمان من ترك منكم عُشْرَ ما أُمر به هلك، ثمّ يأتي زمان من عَمِلَ منكم بعُشرِ ما أُمر به نجا».

# نصوص أصلية

## البر الحقيقي

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرَّاء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ (البقرة، ١٧٧).

## المسيح وأمه وفق القرآن

﴿وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين﴾ (آل عمران، ٤٢).

﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾

(آل عمران، ٤٥ ـ ٤٧).

﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا﴾ (النساء، ١٥٦ - ١٥٩).

﴿يا أهل الكتاب لا تغالوا في دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه...﴾

(النساء، ١٧١).

## الإنسان بعد الحج غيره قبله

على الحاج أن يدخل الحرم لأول مرة عبر باب السلام (باب الخلاص): «يارب، أنت الخلاص ومنك الخلاص. نتوسل إليك أن تستقبلنا وتمنحنا خلاصك وتقبلنا في الفردوس حيث الخلاص الأكبر». من الذي يتكلم؟ هل الكلمات التي أسمع قادمة من بين شفتي، أم أنها الكلمات التي يقولها في نفس الوقت جاري الذي لا أعرفه أم التي يقولها آلاف البشر الذين لا أعرفهم، الذين هم أخوتي؟

ليس لدي الوقت كي أميز إذا كنت أنا قد لفظت الكلمات الشعائرية أم أنها قيلت لي. المدخل الذي كنا نعبر تحته أصبح خلفنا. بعده، إذا صح قولي، توجد الباحة الداخلية للمعبد. لم ينبلج الضوء بعد، وقد كنت غارقاً في تضرّعي وفي مشهد الحشد الهائل فلم أرَ إلا القليل مما يقع وراء المدخل نفسه. لكن بعد أن تجاوزناه أدركت أن تقدم الآخرين وتقدمي أنا راح يتباطأ، وحتى يتوقف. رفعت عينيَّ.

أرى الآن ما لم أره من قبل. المكعب البسيط، البسيط جداً، يلفه قماش أسود بسيط، بسيط للغاية، ينصهر في عتمة الفجر، يبدو شيئاً غير واقعي، كأنه معلق ولايرتكز إلى الأرض. وتبدو الحلقة الهاذية من الهامسين كأنها قاعدة الكعبة، كأنهم يرفعونها عالياً بالنصر.

شعرت الدموعَ تنحدر على وجنتي. تنحدر لا أدري من أين. لم أعد الرجل الذي كنته. لم أعد الشخص اللامبالي أو المهتز الإيمان كما كنت أحياناً، ليس هذا فقط بل لم أعد المؤمن النظري الذي كنته من قبل، قبل لحظات فقط، ذاك المؤمن الذي كان تواقاً لفهم وتحليل نفسه وغيره، تواقاً لوضع نفسه، لوضع كل إيماءةً منه في السياق، هادفاً ربما، في خلفية ذهنه إلى أن يجد الكلمات المناسبة لاحقاً ليصف كل هذا، ليشرحه إلى المثقفين من أمثاله؛ لم أعد أعرف ذاك المؤمن ـ الفيلسوف، لم أعد أتعرف على نفسي فيه.

كلا، أنا الآن مجرد رجل تجري الدموع على وجهه. لحسن الحظ، الكلمات التي أحتاج إلى تلاوتها بسيطة، بسيطة للغاية، وتقول تماماً الأشياء التي أرغب أن أرفع صوتي بها في هذه اللحظة: «الله أكبر! الله أكبر! لا إله إلا الله!» وتجري دموعي وتجري. أصلّي ركعتين ووجهي يستحم بالدموع. فاضت دموعي بالمعنى الحرفي للكلمة. وأنا أشعر كما لو أنني أستحم بها، أُغمر بها.

عز الدين غيلّو. الحج إلى مكة.

# الفصل السادس

# حضارة الاتساق

عندما انبثقوا من الصحراء حاملين الرسالة التي ستغير شرط وجود الكثير من الشعوب، لم يكن المسلمون الأوائل (متحضرين) بالمعنى الذي نستخدمه اليوم. فإذا وضعنا جانباً الأفكار والتقاليد التي مكّنتهم من العيش في بيئة معادية في أرجاء الجزيرة العربية الهائلة، لم يكن لدى هذا الشعب البسيط والفطري من المعرفة سوى ما يحتوي عليه الكتاب الموحى وتعاليم الرسول الذي خرج للتو من بين ظهرانيهم. ولم يكن لديهم في مجال الفن شيئاً ما خلا بضع مهن أمّنت لهم الأسلحة والملحقات الضرورية في طريقة حياتهم الرعوية؛ في حين اقتصر الأدب لديهم على الشعر والملاحم التي تقترن بمهرجانات البدو وارتحالهم اللامتناهي على ظهور الجمال. لم يكن مجمل هذا ليخلو من جمال ما ولكن وفقاً لمعاييرنا الحديثة ربما لانزال نصف العرب الذين شرعوا، في منتصف القرن السابع الميلادي، بالسيطرة على العالم (بالبدائيين).

لقد وضع هؤلاء العرب القساة و«البدائيون»، بعد بضعة عقود من تأسيس خلافتهم في دمشق، أسسَ حضارة جديدة سوف تُثبت أنها واحدة من أنقى وألمع الحضارات على مر العصور. حضارة أخذت إلى

بوتقتها طيفاً واسعاً من المصادر والمواد وأظهرت قدرة تَمثُّل استثنائية، سمحت لها أن تحتفظ بدرجة عالية من التماسك حيثما ضربت جذورها، وأن تبقى، كأي شيء آخر ينبع من الإسلام، مرتكزة على مبدأ الاتساق.

لا يمكننا أن نستوعب الطبيعة الحقيقية لهذه الحضارة، أو أن نفهم كيف تميّزت جذرياً عن حضارة ما بعد النهضة الأوروبية، دون أن نعي المبادئ الكبرى التي انطوت عليها هذه الحضارة، المبادئ التي ظلّت تغذيها وتلهمها مادامت حضارة إسلامية أصيلة. علينا أن نقول بدايةً إن الحضارة الإسلامية كانت تعبيراً أصيلاً عن الإسلام بما هو كذلك؛ أي أنها في كل صورها رَعَتْ موقف الخضوع والاتساق مع الإرادة الإلهية.

إن نظرة الثقافة الإسلامية للعالم نبعتْ دائماً من الوحي على نحو مباشر، أي من الحقائق الخالدة والمتعالية وليس من التأملات و«النظم» التي طورها الفلاسفة أو غيرهم من المفكرين. ولم تأخذ الثقافة الإسلامية من تركات الثقافات الغربية أو السابقة عليها إلا بقدر ما ينسجم المأخوذ مع منظورها الخاص، أي بقدر ما يمكن لهذا المأخوذ أن «يؤَسْلَم» على نحو شمولي.

إذا كان لنا أن نعرّف «المقدس» على أنه: آثار المطلق في النسبي، أو آثار اللامحدود في المحدود، أو اللازمني في الزمني؛ فيجب إذن أن نحدد الإسلام على أنه مقدس. لقد حافظ دائماً على وعيه بالحقائق العليا وظل شاهداً على هذه الحقائق التي أسقط انعكاساتها على هذا العالم السفلي. وكان موقفه الأساسي دائماً، بطريقة أو بأخرى، تطبيق الشطر الأول من الشهادة: لا إله إلا الله؛ ذلك أن الإسلام يستدعي الإلهي دون أن يؤلّه الخلق، على خلاف الفكر الحديث (والفكر العلمي خصوصاً) الذي لا

يُدرك اتساق الواقع إلا في إطار نظام فكري وضعي يتم فيه تحديد طبيعة المطلق بأسلوب فاسد.

حافظ المسلمون على الدوام، في كل المجالات والأنشطة التي تشكل مجتمعةً ما نسميه «حضارة»، على ذكر الواقع الميتافيزيقي الذي يتم التعبير عنه تماماً بالشهادة. إن هذا الذِكر هو ما يُعطي، في آخر المطاف، القيمة الحقيقية لأي نشاط بشري. فوفقاً للحديث: «ألا إنّ الدّنيا ملعونةٌ، ملعونٌ ما فيها إلّا ذكر اللّه، وما والاه، وعالمٌ أو متعلّمٌ». المسلم لا يشْرَعُ بأي شيء، وخاصة في مجال المعرفة والفنون، دون أن يلفظ مسبقاً التعويذ: «باسم الله».

جسدت الحضارة الإسلامية، المشبعة بمعنى الألوهية، حكمةً وَقَتْها من الشطط. رغم أن الحضارة الإسلامية لا تؤلّه الكون كما يؤلهه الإنسان المعاصر، فإنها تميّز طابعه الرمزي في كونه تعبيراً عن حقائق عليا. وبالتالي فهي تحترمه وتحافظ على الانسجام معه. ومن باب المقارنة، نجد الحضارة البرميثيوسية الحالية تضفي على الكون قيمةً مطلقة من جهة، ومن جهة أخرى ـ بعد أن عجزت عن قراءة «علامات» الله في الكون ـ تجرده من القدسية وينتهي بها الأمر إلى تدمير توازنه، وما في ذلك من عواقب وخيمة خاصة فيما يتعلق بالبيئة، إنها حقيقة صاعقة.

مهما يكن من أمر، فإن الفلاسفة والعلماء والفنانين المسلمين لم يُعَلْمِنوا الكون، إنهم، بإدراكهم قوانين الكون التي تنظم كل مستويات الوجود، يخضعون لها دون الادعاء بالإبداع المتواصل أو «بالتقدم» اللامحدود في محدودية الطبيعة. فهم يرون إلى النظام المخلوق بمنظار تركيبي يحدد لكل شيء في الوجود مكانه في هرمية كونية. وهكذا فقد عاش المسلم إبان الفترة الكلاسيكية، في عالم كامل الاتساق، حيث كل

شيء يحمل معنىً وحيث كل شيء يساهم في خلق فضاء متناغم ومتوازن ويذكّر المسلم، علاوةً على ذلك، بغايات وجوده (الشيء) النهائية باستمرار.

كما امتلكت الحضارة الإسلامية القدرة على تحويل الوسط الذي انتشرت وازدهرت فيه، حيث خلقت شروط حياة قد يرغب بها الكثير من معاصرينا، حتى ممن يعيشون في أكثر البلدان «تطوراً»؛ ولكن، علاوة على ذلك، فقد أضفت على بيئتها «طابعها الروحي» الخاص؛ وَسَطٌ مقدس أضفى معنىً عميقاً على حيوات الجميع. وقد حازت حتى أدنى الشرائح الاجتماعية في هذه البيئة على منافع حسّنت شروط وجودها المادية، وهم في هذا العالم الفاني ليس إلا مسافرين، فهم يعلمون أن مصيرهم إلى دار أخرى ليست فانية.

بالطبع لم يزعم الإسلام، على خلاف النظريات الاشتراكية الحديثة، أنه يؤسس «جنةً على الأرض» من أي نوع؛ فالإسلام يعلّم أن الآخرة خير من الأولى وأن على الإنسان السعي من أجل «دار البقاء» قبل أي شيء آخر، معتمداً على النِعَم التي منحه إياها الخالق. ولذلك فإن الحضارة الإسلامية لم تمثّل أبداً حالةً من الكمال، فهي إلى جانب عظمتها لم تكن خالية من النواقص وأنواع الشرور، بما فيها الأوضاع التي يعتبرها الذهن المعاصر مظالم اجتماعية. إنها على الأقل واقعية ولم تسعَ وراء المستحيل، على خلاف الطوباويات الحديثة بتخيلاتها وأوهامها. بالطبع لا تخلُ الحضارة الإسلامية من مثاليةٍ ما، إذا فهمنا من هذا المفهوم المبادئ التي حددناها آنفاً؛ لكنها، بإدراكها ماهية الإنسان في كلية وجوده، تأخذ في اعتبارها مواطن ضعفه وتحاول أن تلطّف من آثارها، وتقدم له في الوقت نفسه أفضل الفرص الممكنة ـ ضمن الشروط الكونية ـ لتحقيق نزوعه الأولي الذي يهيئه للخلود.

تقدم العبودية مثالاً هاماً على هذا النوع من «الواقعية المتسقة مع المبادئ العليا»، رغم التفسيرات الزائفة والمغرضة التي خضعت لها. فالحضارة الإسلامية مارست شكلاً من العبودية نظمته الشريعة. ورغم أن الشريعة لطّفت من قسوة العبودية وأخضعتها لضوابط لم تكن معروفة في المجتمعات السابقة، إلا أن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن غالباً: لماذا لم يتقدم الإسلام خطوةً أخرى ويشرّع إلغاء العبودية؟

الإجابة على هذا السؤال تقتضي أولاً الإشارة إلى أن الإسلام تسامح مع العبودية لكنه لم يستحسنها أبداً، وأن كل تعاليم الإسلام وتوصياته في هذا المجال تقود إلى تلطيفها قدر الاستطاعة في المدى القريب، وإلى إنهائها التدريجي في المدى البعيد. إن إلغاء العبودية كان أمراً مستحيلاً في عالم كانت كل الدول المتاخمة للامبراطورية الإسلامية الحديثة تمارس العبودية، وحيث أن فكرة التصدي لمبدأ العبودية لم تكن في بال أحد. لقد كان طبيعياً استعباد أسرى الحرب ـ حين ينجون من الذبح ـ وكان لزاماً على الدولة الإسلامية أن تتعامل بالمثل وإلا لوضعت نفسها في موضع حرج إزاء أعدائها. عندما ضمنت الدولة الإسلامية معاملة إنسانية للأسرى وفتحت لهم إمكانيات عديدة لتحرير أنفسهم من الاستعباد، فإنها جعلت عدداً كبيراً من المحاربين في الجيوش المعادية يفضلون الأسر بيد المسلمين على الموت في ساحة المعركة.

يجب أن نؤكد بوضوح على أن العبودية التي مورست في العالم الإسلامي لا يمكن مقارنتها بالعبودية التي مورست في الإمبراطورية الرومانية مثلاً، فالتشريع الإسلامي أخضع مالكي العبيد إلى مجموعة من الالتزامات الدقيقة على رأسها حق العبد بالحياة، فوفقاً للحديث «من قَتَلَ

عبْده قَتلنَاهُ». وبالنتيجة فإن جريمة قتل العبد كانت تستدعي العقاب مثلها مثل جريمة قتل الحر.

ثمة أحاديث كثيرة أخرى تحدد الموقف الإسلامي الحقيقي في هذا المجال منها: «قال إنّ إخوانكم خَوَلُكُمْ جعلهم اللّه تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل، وليلبسه ممّا يلبس، ولا تكلّفوهم ما يُغلِبُهم فإن كلّفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم». تأخذ الشريعة هذه الوصايا في حسبانها حين تحدد مسؤوليات وواجبات مالكي العبيد.

هناك توصية أخرى تأمر باحترام الكرامة البشرية للعبيد: «لا يقولنّ أحدكم (عبدي وأمتي)، كلّكم عبيد اللّه وكلّ نسائكم إماء اللّه، ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي». يقول الرسول، مخففاً من الطبيعة الشرطية للعلاقات الاجتماعية ومن السلطة التي يمارسها مالكو العبيد على عبيدهم: «حقاً أن الله جعلكم أسياداً عليهم، ولكن إذا كان قد أراد ذلك فقد كان بمقدوره أن يجعلكم عبيداً لهم».

لقد اعتبر تحرير العبد دائماً حسنةً لا تفوقها حسنة، والكثير من الآيات القرآنية توصي بها، خصوصاً كوسيلة للتكفير عن الخطايا الكبيرة. يحدد التشريع التقليدي طرق التحرير الطوعي للعبيد من قبل أسيادهم «العتق»؛ وقد قام بذلك عدد كبير جداً من المسلمين، خصوصاً في نهاية حياتهم لكي لا يموت أحدهم ويظهر أمام الله قبل أن يكون قد حرر كل الكائنات البشرية الواقعة تحت سلطته في حياته الدنيوية.

أضف إلى ذلك، كان باستطاعة العبد أن يحرر نفسه بمبادرته الشخصية، دون الاكتفاء بالانتظار السلبي للإرادة الطيبة لسيده: ثمة إجراء معروف باسم المكاتبة، يسمح للعبد بأن يشتري حريته الشخصية

بمبلغ وفّره من عمله، وكانت الدولة تساعد العبد بالتسليف ـ وهو إجراء لم يكن لمالك العبيد الحق في الاعتراض عليه. لم يكن العبيد، على خلاف الوضع في القانون الروماني، محرومين من القدرة القانونية لممارسة حقوقهم والادّعاء ضد أسيادهم في جميع حالات المعاملة المخالفة للشرع.

إلى جانب الرقيق المنزلي، الذي حمل عموماً صبغة بطريركية، انوجد أيضاً شكل من الرقيق العسكري، الذي كان يستخدمه تكراراً الأمراء المحتاجون إلى مجندين، وخصوصاً كحراس شخصيين. الأمر الذي أحال قدراً معتبراً من النفوذ والسلطة إلى أيدي رجال في حالة عبودية أو من أصل عبودي، وقد أصبح بعضهم مؤسسين لأسر مالكة عظيمة ومشهورة مثل الطولونيين والمماليك في مصر.

كانت تجارة العبيد مزدهرة إبان الامبراطورية العباسية وكان هذا القطاع من التجارة خاصاً بغير المسلمين عموماً ولاسيما اليهود وتجار البندقية وبيزنطة. ثم تراجعت أهمية هذه التجارة تدريجياً حتى باتت مقتصرة، في بداية القرن العشرين، على قلّة قليلة مالبثت أن اختفت كلياً. وبفضل الضوابط التقليدية الصارمة التي نظّمت الممارسة على طول الخط، سيكون من الصعب أن ننكر أن الشروط الاجتماعية كانت إنسانية خلال الفترات العظيمة من الحضارة الإسلامية، وأن هذه الشروط كانت، فوق ذلك، في اتساق مع الروح «المساواتية» للإسلام الذي يوصي في أحد أحاديث الرسول بأن «العبد الحبشي الأسود» يفوق أنبل القرشيين، إذا كان أكثر منه تقوى.

إذا أردنا أن نفهم كيف تعبّر حقاً روح الإسلام عن نفسها في حضارة، علينا أن نفهم الوظيفة الأساسية للفن الإسلامي، الذي يصور الأشكال التي تؤلف سياق حياة المجتمع المؤمن، خالقاً بذلك البيئة الأكثر

ملاءمة للرحلة الدنيوية لكل إنسان وعودته إلى الله. الفن الإسلامي إذن «فن مقدس» بكل ما في الكلمة من معنى.

مما له دلالته، أن تطور الفنون التشكيلية في الحضارة الإسلامية سبق تطور الأدب والعلوم، وهذا يعود تحديداً إلى أن دورها أكثر أهمية في ممارسة الدين. فالفنون التشكيلية تعبر عن المذهب المقدس والحقيقة الميتافيزيقية بطريقة مباشرة ووجودية أكثر من الأدب أو الفلسفة أو العلوم التي تعتمد أساليب منطقية بطبيعتها.

كانت الخلافة الأموية (٦٦١ - ٧٥٠م) حقبة تطور أرسى خلالها الفن الإسلامي الخطوط الأساسية لجماليته الخاصة وحدد وظائفه الاجتماعية والروحية. وكانت الانجازات الأولى للفن الإسلامي من أعمال معماريين وفنانين مسيحيين (أو متحولين حديثاً إلى الإسلام)، وهذا ما يفسر احتواء هذه الانجازات على بقايا كثيرة من مفاهيم جمالية سابقة، معظمها بيزنطي. نرى هذا جلياً في القصور الفخمة العائدة إلى الحكام الأمويين في سوريا، الزاخرة بأشكال بشرية وحيوانية بأسلوب غريب عن النمط الإسلامي اللاحق. مع ذلك، إلى جانب هذا الفن الدنيوي الوثني، شيّد هؤلاء الخلفاء أنفسهم نصبين عظيمين يشكلان علامة المرحلة الأولى من الفن المقدس الإسلامي النموذجي، هما: قبة الصخرة في القدس والجامع الأموي في دمشق.

قبة الصخرة، التي يسميها الأوربيون خطأً «جامع عمر»، والمشيَّدة على الصخرة المقدسة لهيكل سليمان القديم، التي صعد من فوقها الرسول إلى السماء في ليلة المعراج، لاتزال بيزنطية نموذجية في أسلوبها، رغم أنها تنتمي إلى الإسلام بفضل روحها والاتساق الهادئ لخطوطها. ولكونها مركزاً للحج ومكاناً للتأمل أكثر مما هي بناء مصمم للعبادة الجماعية، فإنها

لم تُتَّخذ نموذجاً من جانب بنّائي المساجد، رغم أن قبتها الشهيرة مارست درجةً ما من التأثير على المعماريين المسلمين.

شُيّد جامع دمشق العظيم، الذي ينهض في موقع معبد أغريقي قديم حُوِّل بعدئذٍ إلى كنيسة مكرّسة للقديس يوحنا المعمدان («يحيى» بالنسبة للمسلمين)، في بداية القرن الثامن في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي بناه، مستخدماً مواد البناء القديم، على شاكلة الجامع الأول الذي بناه الرسول في المدينة المنورة. وهذا ما أعطاه أهميةً خاصة في تطور فن العمارة الإسلامي المقدس، لاسيما ما يتعلق بتمفصل فضاءاته المصممة للصلاة للجماعية.

جدير بنا أن نلاحظ أحد المكونات الزخرفية لهذين النصبين: كل منهما يحوي فسيفساء رائعة لاتزال تنتزع إعجاب الزوار. هذه الفسيفساء تدمج أنواعاً عديدة من رسوم النباتات، وتصوِّر، خصوصاً فسيفساء الجامع الأموي، مناظر تحوي قصوراً ومدناً خيالية. لا تحوي الرسوم على كائن حي، إنسان أو حيوان، انسجاماً مع التحريم الذي روعي دائماً وعلى نحو صارم ـ في أماكن العبادة ـ منذ فجر الإسلام.

ما هو أكثر إمتاعاً أن زخرفة هذين البنائين الشهيرين تبقى فريدة تماماً في تاريخ الفن الإسلامي، ذلك أنه بعد تشييدهما، طُبق تحريم تام على التمثيل الترميزي، باستثناء بعض رسوم النباتات النمطية المستخدمة في الأرابيسك. وحتى هذه لم يسمح بها إلا بالتجاور مع كتابات من القرآن؛ لقد أصبح رفض التصوير، الذي يسمى غالباً «aniconism»، سمة أساسية من سمات الفن الإسلامي.

لم يكن التحريم، على كل حال، مطلقاً؛ فقد تساهل التقليد كثيراً مع التصوير المسطّح، ولكن فقط في سياق الفنون الدنيوية التي ليس لها

رابط مباشر مع ممارسة الدين. وكحكم عام، لم يشمل هذا التسامح الصور التي «تعطي ظِلاً» وبالتالي لم يشمل النحت الذي غاب عن الحضارة الإسلامية، باستثناء بعض الحالات الجدير ذكرها مثل باحة الأُسود في قصر الحمراء في غرناطة.

وجد التصوير البشري تعبيره الغني والجذّاب في رسم المنمنمات، شكلٌ من الفن برع فيه الفنانون الفرس على نحو خاص - رغم أن بعض العرب والأتراك والهنود أظهروا أيضاً موهبةً كبيرة فيه. وقد ترك هؤلاء الفنانون تحفاً رائعة إلا أنها، بالرغم من كونها تشكل بلا شك جزءاً من الميراث الفني للحضارة الإسلامية، لا تعبر أصالةً عن الروح الخاصة المميزة لهذه الحضارة.

اكتسب فن المنمنمات الشرعية بخضوعه للقواعد الصارمة - مثل الحظر على المنظور والتجسيم - إلّا أنه بقي مع ذلك هامشياً واستثنائياً إذا ما قيس بالفنون الإسلامية النموذجية كالأرابيسك والخط. يجدر القول إن عدداً من السلطات الدينية نظرت دائماً إلى فن المنمنمات بعين الشك أو حتى رفضته.

ما يتوجب تسليط الضوء عليه بجدارة هو ما أظهرته أبكر التعبيرات الفنية الإسلامية من أصالة وروح خاصة ميّزتها مباشرةً وعلى نحو جذري عن كل ما سبقها. لقد عبّرت جدّة الوحي عن نفسها أيضاً في أشكال ستساعد على خلق فضاء فريد للإسلام.

أنتج المستشرقون المعاصرون ونقاد الفن بعض الدراسات والتعليقات الهامة في موضوعات تخصّ تطور الفن الإسلامي، واصلين غالباً إلى حقائق لها أهمية وثائقية وتاريخية حقيقية. لكنهم عبّروا أيضاً - وعلّموا في جامعاتهم - عن فهمٍ مشوّه لهذا الفن ووظيفته في الإطار التقليدي

للحضارة الإسلامية؛ وهذا يعود غالباً إلى عدم كفاية فهم الهوّة الشاسعة التي تفصل الفن الإسلامي عن حداثة ما بعد النهضة. ذلك أن وظيفة هذا الفن لم تكن أبداً وظيفة نظام جمالي أو «ثقافي»، بالمعنى الحالي لهذه الكلمات، كما لم يكن من وظيفة هذا الفن ـ على خلاف الفن الغربي المعاصر ـ أن يشكل وسيلة تعبير عن الفردانيات الشخصية. إن الأطروحة الأساسية لكل الفن الإسلامي الأصيل هي **الواحد**، وتجلّيه في الكثرة؛ ولايمكن للفنان أن ينسجم مع هذه الأطروحة دون أن يتخلّى عن فردانيته.

تجب الإشارة في هذا السياق إلى تشوش مميَّز يعتري أذهان بعض الكتاب ويتعلق بمفهوم «الفن التجريدي» الذي يُعتقد أنه ينطبق على الرفض الإسلامي التقليدي لمحاكاة المظاهر المحسوسة كما على الفن اللاتشخيصي في الغرب المعاصر سواءً بسواء. في الواقع، بعيداً عن بعض التشابهات العرضية والسطحية، فإن هذين الشكلين من «الفن التجريدي» لا يشتركان بشيء، ذلك لأن دوافعهما متعارضة تماماً.

من جهة أولى، ينطلق «الفن التجريدي» الإسلامي، في طريقته الفريدة، من الشهادة، التي هي شجبٌ «للوهم الكوني»، ويحظر على الإنسان أن يُسقط أحد قوانين الواقع على قانون آخر (أو أن يُسقط طبيعة **المطلق** على النسبي)؛ كل ذلك كي يمكّن الإنسان من تمييز علامات الوحدانية في الكثرة والاحتفاء بها. وبالمقابل، تكشف معظم نتاجات الفن اللاتشخيصي المعاصر، تفسّخ واقعٍ جُرّد من دلالاته الميتافيزيقية فأصبح بالتالي عاجزاً عن الوجود بذاته؛ وبالتالي تحوَّل، في المقام الأول، إلى وسيلة تعبير عن اللاوعي واضطراباته اللامعقولة.

إن أطروحة **الواحد** التي تغذي كل أثر فني إسلامي أصيل، تبدو واضحة على نحو خاص في الفن الزخرفي للمساجد، حيث يسود أسلوبان رئيسيان

هما: الأرابيسك والكتابات القرآنية. هذا المزج يولّد فضاءً من السكينة يقود المرء إلى الصلاة والتأمل: أفضل بيئة ممكنة لازدهار الروحانية والورع الإسلامي.

لم يستبقِ الأرابسك، من ميراث الزخرفة الذي خلفته الحضارات السابقة، سوى عنصرين أساسيين: النقوش المتشابكة ورسوم النباتات، وقد نُفذت هذه الأخيرة بطريقة تجعل من الصعب عليك معرفة الأنواع النباتية التي تنتمي إليها مكونات الرسمة، معرفة دقيقة. يُرينا ذلك خاصتين أساسيتين للفن الإسلامي: العبقرية الهندسية والإحساس بالإيقاع الذي هو بدويّ المنشأ. لقد وصف بعض الكتاب المعاصرين الجمال المُبدَع على هذا النحو «بالأفلاطوني»، ذلك لأنه يتوضع على نفس المستوى الكلّي «للأفكار» و«الأشكال». وبالفعل، هذا الجمال لا يحتوي شيئاً يمكن أن نسميه فرداني أو عاطفي، فنوعيته «ميتافيزيقية» أكثر مما هي «غامضة»، ذلك أنه يؤكد على طول الخط تعالي الله.

لاشك أن الكتابات القرآنية باعتبارها مفصلاً هاماً من مفاصل فن الخط الإسلامي العظيم، والتي نجدها في المساجد والأبنية الدينية الأخرى كالأضرحة، تهدف إلى أن يقرأها المتلقي ويفهمها؛ لكن يمكن للمرء أن يقول، مناقضاً، أن ذلك لا يشكل بالضرورة الوظيفة الأساسية لها. إنها تكفل ذكر كلمة الله ووجودها، لكن جمالية هذه الكتابات أكثر أهمية من كونها مفهومة. وهذا ما يفسر تنفيذها غالباً بالخط الكوفي: خط قديم وصعب القراءة، لكنه فخم ومنمّق. وتتجاور حروفها، فوق ذلك، مع تزيينات الأرابيسك فتساهم مجتمعةً في خلق البيئة المقدسة لهذه الأبنية التي تبدو مشبعةً بتعويذة سماوية مبثوثةٍ في صلب مادتها.

واضح جداً أن النقش الأكثر تكراراً هو **الاسم** السماوي، **الله**. وهذا يمثل نوعاً من **الذِكر** البصري، «تذكّر» الله والتضرّع باسمه؛ الكثير من ممارسات

التقوى الإسلامية يقود إلى ذلك، متّبعاً العديد من وصايا القرآن وخاصةً الآية التي تقول: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ البقرة ـ ١٥٢ .

يزهو هذا الفن الزخرفي في عدد هائل من المساجد المبنية وفق طُرُز تتنوع بتنوع البلدان الموجودة فيها، وبتنوع الأصالات القومية التي ينعكس تأثيرها فيها؛ ولكن المرء يجد في كل مكان ومهما اختلف الطراز، الفضاء نفسه من السكينة التي تبدو كما لو أنها انعكاس لنعيم من السماء. يشكل بعض هذه المساجد مفخرةً لعواصم مثل استانبول أو القاهرة أو لمدنٍ أخرى لعبت دوراً هاماً في تاريخ الإسلام مثل القيروان وتلمسان ومراكش وأصفهان ولاهور وقرطبة التي يبقى جامعها، رغم تحويله إلى كاتدرائية بعد الفتح المسيحي، واحداً من أنقى تحف فن العمارة الإسلامي. تُظهر هذه الأبنية الشهيرة، مثل الكثير من الأبنية الأخرى التي تقلّ عنها مقاساً وشهرةً، نوعيةَ التقوى الإسلامية الشفافة والموضوعية والتي لا يحفّ بها شيئ محرّف أو مسرحي. الجمال بالنسبة لها هو ببساطة أحد مظاهر الحقيقة. فوفقاً لأحد الأحاديث النبوية الأثيرة على قلوب الفنانين: «إن الله جميلٌ يحب الجمال».

شغل الخط، الذي غالباً ما ترافقه الزخرفة، مكانةً مرموقة بين الفنون الإسلامية، وهو من بين بقية الفنون الفن الأكثر تقديراً باعتباره يعيد إنتاج **الكتاب** المقدس، هذا التعبير الذي لا يضاهى عن الحقيقة والحكمة السماوية. وقد برع فنانون عظام في هذا الميدان، فلا يزال يُحتفى بأسماء مثل **ابن البواب** (بداية القرن الحادي عشر ميلادي) **وياقوت المستعصمي** (نهاية القرن الثالث عشر) وإن كان لم يَدُرْ في خلدهما أنهما سيحظيان بالشهرة في هذا العالم جرّاء فنّهما. وتعتبر نسخ القرآن المكتوبة بيديهما والباقية حتى يومنا هذا من أثمن كنوز الحضارة الإسلامية. إن القيمة القدسية التي تمثلها هذه النسخ تفوت حتماً غير المسلمين، مع أنه من الممكن لهم أن يستجيبوا لجمالٍ خالص عصيٍّ

على الوصف يشعُّ منها. لقد ترك معرض المخطوطات القرآنية، الذي جرى تنظيمه خلال **مهرجان الإسلام** الذي عقد عام ١٩٧٦ في لندن، انطباعاً عميقاً لدى الزوار الغربيين؛ أحد النقاد من صحيفة اللوموند احتفل بالروعة الساحرة لهذه المخطوطات بمقال حمل عنواناً موفقاً للغاية: «رسالة المطلق».

ترتيل القرآن، المعادل اللفظي للخط، فنٌ معقد ودقيق، إضافة إلى كونه فعلٌ طقسي. مرّتْ أوقات كان فيها الترتيل هو الشكل الوحيد للفن الصوتي، أو حتى الموسيقي، الذي تعترف به السلطات الدينية، ذلك لأن عدداً من الفقهاء والمشرعين أحسّوا بعدم الأمان تجاه الموسيقا وقدرتها على تحرير الجوانب العاطفية من الروح البشرية.

مع ذلك، ما كان لحضارة عالمية كالإسلام أن تتجاهل الموسيقا. على العكس، فقد سمحت للموسيقا أن تزدهر وتتطور إلى مدارس وأساليب متمايزة عكستْ مختلف أمزجة الشعوب الإسلامية. إن ذكرى الموسيقيين الكبار أمثال إسحق الموصلي في بغداد وتلميذه زرياب، الذي جعل من الموسيقا مهنةً له في قصر الخليفة في قرطبة، لاتزال حية إلى يومنا هذا. كما كانت الموسيقا موضوع أعمال نظرية من مستوى علمي راقي، أشهرها كان (الكتاب الكبير في الموسيقى) للفيلسوف العباسي ذائع الصيت **الفارابي**. تأثرت العصور الوسطى المسيحية عميقاً بالمسلمين في مجال الموسيقا، وهذه حقيقة أكدتها اكتشافات الباحثين الموسيقيين، والدراسات التي أظهرت الأصول العربية لأسماء الأدوات الموسيقية مثل العود (Lute) والرباب (Rebec) والقيثار (Guitar).

يجهل المستمعون المعاصرون الغنى الهائل لهذا الفن، بسبب عجزهم عن استيعاب دقته ونقائه. جديرٌ بالذكر هنا أنه رغم شك وتحفظ الفقهاء المتشددين، فإن الموسيقى التقليدية، التي صُقِلت في ديار الإسلام، فنٌ إسلامي أصيل، قادر ليس فقط على إحداث متعة جمالية صافية بل وعلى

تهذيب الروح وتهدئتها وإبقائها على ذِكر **الواحد**، بفضل البنية والرمزية اللتان تجعلان منها نوعاً من الأرابيسك المسموع.

لم تعترف الحضارة الإسلامية أبداً، كغيرها من الحضارات التقليدية، بفارق حقيقي بين الفن والمهنة. أدوات الاستخدام اليومي هي أيضاً أعمال فنية مشرَّبة بهالةٍ من الجمال تغني حياة الجميع ـ أو على الأقل هكذا كان الحال قبل غزو ثمار الصناعة الحديثة. تقدِّم صناعة الخزف والسجاد مثالاً بارزاً، فالزخرفة والرسوم التزيينية «التجريدية» دائماً، تثير الإحساس نفسه بالإيقاع والعبقرية الهندسية التي نجدها في أعمال الأرابيسك. إن منتوجات هذه الحِرف، التي تعمل دائماً وفق نظم ومعايير متوارثة عبر الأجيال، تُبدي جمالاً لا يملّه المرء أبداً، جمال بريء من أي تهافت في الذوق. إنّها تشع «نوعاً من الحياة» لا قدرةَ البتّة لمنتوجات أكثر المجتمعات «تطوراً» على مضاهاته.

لم يكن من شأن الصفحات القليلة الآنفة إلا الانزلاق على سطح الحقل الشاسع للفن الإسلامي، وقد هدفتْ أساساً إلى إظهار الروح التي يجب بها مقاربة هذا الفن. كما يجب أن تخدم في حل تشوش كامن مزمن: إن الفن الذي ينتجه المسلمون ليس فناً إسلامياً بالضرورة. تشيع اليوم باضطراد رؤية أناس من أصل مسلم يبحثون عن وسائل تعبير لهم في أشكال الفن الغربية المعاصرة التي لا تشترك بشيء مع منظور الإسلام ورؤيته الروحية، حتى عندما تتناول آثارهم الفنية موضوعات مأخوذة من «الحياة الشرقية». لا يكفي أن ترسم مئذنة أو نساء محجبات أو حتى أناساً يصلون، لكي تقول إنك «تعمل» فناً إسلامياً. فالفن الإسلامي الأصيل يجب أن يعبر عن نوعية من الوجود ترتفع فوق الفرد وترتبط، في التحليل النهائي، بالوحي. وكل ما خلا ذلك لا يعدو كونه فولكلوراً.

شكلت العلوم مجالاً أوسع وأكثر تنوعاً في العالم الإسلامي مما شكلته الفنون، رغم ارتباط المجالين بروابط وثيقة. مثّلتْ العلوم الإسلامية، باعتبارها ورثتْ ميراثاً من فروع المعرفة، من العصور القديمة، شُذِّبت وطُوِّرتْ على يد مختلف الحضارات الغربية والشرقية، ذروةَ تيارٍ «تقليدي» عظيم؛ وألّفتْ كُلّاً متماسكاً مكن الإنسان من إيجاد أجوبة على كل ما يدور في خلده من أسئلة حول الكون المبدَع من حوله، ووضع في حوزته مجموعة من الوسائل العملية و«التقنية» الكافية لتقيه من سيطرة المشاغل المادية؛ الأمر الذي أفسح أمامه المجال كي يحيا حياة جديرة بتطلّعه كوريث لله على الأرض.

نهل العلم الإسلامي من مصادر كثيرة، لكن المصادر الثلاثة الأهم هي: فارس ما قبل الإسلام والهند الكلاسيكية والإغريق والحضارة الهلنستية. كان نقل المعرفة من المصدرين الأولين مباشراً نسبياً بفضل احتكاك المسلمين مع ممثلين أحياء لهاتين الثقافتين عقب الفتح الإسلامي للشرق الأوسط والأدنى. بيد أن الميراث الفكري لليونان والاسكندرية جاء العالم الإسلامي عبر الجهد الهائل والمتميز للترجمة خلال القرنين الأولين من الفترة العباسية. وقد لقي هذا النشاط تشجيعاً قوياً من جانب الخلفاء في بغداد؛ أحدهم، **المأمون**، انشأ **بيت الحكمة** الشهير عام ٨٣٠/م حيث تُصقل المعرفة المأخوذة من المصادر القديمة وتُنشر. شعَّ تأثير **بيت الحكمة** عبر الامبراطورية الإسلامية وحتى أبعد منها.

دخلت العلوم القديمة، بهذا الطريق، إلى الحضارة الجديدة، حيث أصبحت أسماء مثل أفلاطون وأرسطو وهيبوقراط وجالينوس وإقليدس مألوفة بالنسبة لكل مثقف. مع ذلك، لم يُسمح بالدخول إلا لأولئك الكتاب الذين تنسجم أعمالهم مع حقائق الإيمان. في هذا المجال احتل

أفلاطون مكانةً مرموقة، وأحياناً كان يُنظر إليه كمعادل للرسل؛ وليس نادراً أن ترى مسلمين يحملون اسمه.

يُلقي المؤرخون والباحثون المعاصرون الضوء على مدى المساهمة البارزة التي ساهمت بها الحضارة العربية الإسلامية في مجال العلوم الإنسانية والمعرفة عموماً. لقد أظهر المسلمون، في عصورهم الذهبية، فضولاً ثقافياً لا يرتوي مورس بحرية دون أية كوابح تقريباً من جانب السلطات الدينية؛ فالرسول نفسه أوصى بطلب العلم «ولو في الصين»، ثم ألمْ يعلِّم الرسول أن مداد العلماء يوم الحساب أثمن من دم الشهداء؟

شارك اليهود والمسيحيون وحتى الزرادشتيون بفعالية في الحياة الثقافية للامبراطورية الإسلامية، خصوصاً كمترجمين وناقلين للنصوص ما قبل الإسلامية؛ وقد كان دورهم بارزاً في تطوير الطب العربي. الجميع أعملوا فكرهم في علم الفلك والميتافيزياء على خط يتوافق مع تعاليم القرآن والحديث. في هذا السياق، الذي لم يعترض أحد على شرعيته، وسّع الفلاسفة والعلماء في العالم الإسلامي وأغنوا ميدان المعرفة البشرية؛ جعلوها أكثر دقة وأكثر قدرة على الاستجابة للمسائل التي يطرحها الكون من مظاهر الطبيعة.

من الضروري أن نفهم أن العلم الإسلامي لم يكن مقسماً إلى فروع منفصلة ومستقلة كثيراً أو قليلاً كما هو الحال في العلم المعاصر، بل كانت فروعه متضامّة في وحدة عضوية واحدة، فالعلماء آنئذٍ كانوا يمارسون عدة اختصاصات، رافضين التقيّد باختصاص واحد. حالة العظيم (ابن سينا) معروفة للجميع، فهو طبيب ورياضي وفيزيائي وكيميائي وفلكي وفيلسوف وحتى شاعر - دع جانباً نشاطه السياسي، لكن هناك حالات أخرى كثيرة مشابهة. مثلاً، لا يعرف قرّاء رباعيات عمر الخيام الشهيرة أن مؤلفها كان، إضافةً لكونه شاعراً، رياضياً وفلكياً بارزاً.

انشغل الباحثون الإسلاميون القدماء، على خلاف زملائهم المعاصرين، الذين غرقوا في دراسات من طبيعة تدريجية وكمية وتحليلية أساساً، بعلمٍ نوعي وتركيبي عَكَس رؤيتهم الشمولية للعالم المخلوق. وهكذا كانَ هؤلاء قادرين على دمج عنصر الحكمة في معرفتهم، الأمر الذي وقاهم من أن ينسبوا للعلم سلطةً مطلقة (كان هذا سيعني تأليه العلم)، خشيةَ أن يفلت من السيطرة وينقلب عليهم.

كان لعلم الفلك تقديراً خاصاً في الحضارة الإسلامية انسجاماً مع القرآن، الذي يحتوي آيات تحضّ على التأمل في السماوات والأرض لأن فيها «آيات» الله. لذلك اعتاد المسلمون على تفحّص قبة السماء بإمعان وهم يقفون على الهضاب أو المآذن. يحفظ التاريخ ذكرى الفيزيائي والفلكي الأندلسي من القرن التاسع «**عباس بن فرناس**» الذي اعتاد أن يجلس على الهضاب حول قرطبة ليدرس حركة النجوم، والذي اشتهر خاصةً باختراعه آلة للطيران، طائرة شراعية مصنوعة من الريش والقماش سمحت له أن يبقى معلقاً في الهواء لفترات طويلة إلى أن تحطمت ذات يوم.

كرّس رجالٌ كثر آخرون أنفسهم لدراسة الفلك، وتلقوا الدعم من بعض الخلفاء في بغداد وقرطبة، ثم من خط كامل من الحكام والأمراء يصل حتى فجر الأزمنة الحديثة، واشتغل الكثير من هؤلاء العلماء مشرفين على مراصد أُنشئت في المناطق الرئيسية من العالم الإسلامي. أشهرها مرصد مَراغه في فارس الذي أسس في القرن الثالث عشر على يد العالم الكبير **نصير الدين طوسي**، وكان هذا المرصد مؤسسة تكاد تكون معاصرة في طابعها، حيث ضمت فِرقاً من البحّاثة جاء الكثير منهم من بلدان نائية.

يفاخر علم الفلك الإسلامي بأسماء عظيمة أخرى (الفرغاني، ثابت ابن قُرّة، علي ابن يونس، البطّاني، البيروني، شيرازي، كاشاني، وهذا

غيض من فيض). وقد تفوق هذا العلم على علوم الأقدمين بانجازات هائلة؛ حيث حقق اكتشافات ذات أهمية بالغة في تاريخ الفكر البشري. على سبيل المثال، صحح عدداً من أخطاء بطليموس في علم الفلك، حسب المسافة بين الأرض والقمر بدقة باهرة قياساً بالوسائل التقنية المتوفرة آنئذٍ، اكتشف الشذوذ الثالث للقمر، اكتشف كُلفَ الشمس، كما طور أو تمّم عدداً كبيراً من الأدوات العلمية بما فيها الأسطرلاب والرُّبعية السمتية. ممتعٌ أن نشير هنا إلى أنه بالرغم من قيام البيروني بتطوير نظرية دوران الأرض حول الشمس، قبل كوبرنيكوس بخمسة قرون، لم يؤدِ اكتشافه هذا إلى ردود فعل معادية كما سيحصل لاحقاً في أوروبا.

أشار مؤرخو العلوم إلى أنه لولا مساعدة العلوم الإسلامية لما تمكّن العلماء في أوروبا من تطوير أفكارهم الجديدة في علم الفلك وعلم الكونيات، الأفكار التي قلبتْ النظرة التقليدية عن الكون وشكّلت أساس أفكار الحداثة. قد يتساءل المرء بعد ذلك، لماذا لم تحدث الثورة العلمية في العالم الإسلامي؟ يجيب على هذا السؤال، الذي يطرحه باستمرار الكثير من الفلاسفة، باحثٌ مسلم معاصر ضليع في علوم الشرق والغرب، إجابةً تبدو أعمق من أية محاولة سابقة: «كان لدى المسلمين كل المعرفة التقنية اللازمة للإطاحة بنظام بطليموس، بما في ذلك معرفتهم بالنظام القائم على مركزية الشمس، لكنهم لم يفعلوا ذلك لأنهم لم يكونوا قد نسوا بعد المحتوى الرمزي لعلم الفلك التقليدي، ولم يكونوا قد نسوا بعد حقيقة أن أفضل طريقة لتذكير الناس بوجود الله هو أن تذكرهم بالطبيعة المحدودة للعالم المخلوق»(*).

احتلت الرياضيات، وهي نظام شديد الارتباط بعلم الفلك، مكانة

(*) سيد حسين نصر. العلم الإسلامي. لندن ١٩٧٦ .

هامة أيضاً بين فروع العلم الأخرى في الحضارة الإسلامية؛ حيث تطورت تطوراً ملحوظاً. تكفي الإشارة إلى بضع الحقائق للتأكيد على اتساع ومدى هذه الاندفاعة.

العالَم الإسلامي هو الذي أخذ الأرقام التي تسمى الأرقام «العربية» من الهند وعمّم استخدامها، لتدخل بعدئذٍ العالم المسيحي. كما طور العلماء المسلمون الكسور العشرية ووظيفة الصفر؛ إن كلمة (Zero) التي نستخدمها اليوم هي من أصل عربي(*). لا بد لنا من ذكر اسم العالم الكبير **الخوارزمي**، أول مدير لبيت الحكمة في بغداد، إذ يعتبر هذا العالم من بين أعظم العبقريات في تاريخ البشر. لقد ترك انجازه بصمات عميقة على المصطلحات العلمية المعاصرة؛ فإليه تعود كلمة الجبر التي نستخدمها اليوم (Algebra) وكلمة اللوغاريتم (Algorithm) وهي من تحريف اسم العالم إلى الكاريزمي (Alkarizmi). لقد حدث تطور شامل وكبير جداً في مختلف فروع الرياضيات. فإضافة إلى إبداع الجبر، الذي طبقوه أيضاً على الهندسة، يمكننا أن نذكر ـ من بين أمثلة كثيرة ـ حقيقة أن المسلمين هم الآباء الحقيقيون لعلم المثلثات الذي مكنهم من فتح الطريق أمام اكتشاف الخوارزميات وحل مجموعة هامة من المسائل، بفضل التطويرات التي أدخلوها إلى طرق الحساب.

رغم الطبيعة الكمية الظاهرة للرياضيات، إلا أنها لم تَعْدَم، في الإسلام، قدراً من المحتوى الكيفي المرتبط بالفيثاغورية. أقر المسلمون بالقيمة الرمزية للأرقام، التي تنبثق جميعاً من الرقم الأساس: **الواحد**، أصل كل الأشياء والمآل النهائي الذي لا بد أن تعود إليه جميعها. لم تكن الرياضيات، إذن، علماً دنيوياً حصراً؛ بل شاركت في القدسية التي تتخلل

(*) الكلمة العربية التي تقابل (Zero) هي صفر، ونحن أيضاً نستخدم كلمة (Cyphet)؛ كلمة (Zero) جاءتنا عبر الكلمة الإيطالية (Zefero).

الحضارة الإسلامية وتسبغ عليها إحساساً بالتوازن والتناسب الذي كان دائماً سمة بارزة لها، خصوصاً في تعبيراتها الفنية.

ساهم المسلمون أيضاً مساهمات كبيرة في مجال علم الطبيعة ومعرفة الإنسان ببيئته الأرضية، خاصة في مجال علم الحيوان وعلم النبات. ويمكن اعتبارهم بحق المؤسسين الحقيقيين لعلمي الفيزياء والكيمياء: إن اسم الكيمياء ذو أصل عربي.

المجال الذي أسس شهرةً للعلم العربي الإسلامي في الغرب هو مجال الطب أكثر من أي فرع معرفي آخر. ممتعٌ أن نشير هنا إلى أن أعظم العلماء المسلمين كانوا أطباء فطاحل أيضاً. أشهرهم على الإطلاق ابن سينا، وهناك غيره الكثير ممن يجدر ذكرهم مثل الفارابي وابن رشد والبيروني والكندي.

إن المكانة التي تمتع بها الطب بين سائر العلوم كانت تعكس حقيقة أن الطب لم يكن مجرد نظام معرفي يهدف إلى شفاء المريض، كما أصبح اليوم، بل، فوق ذلك، كان فلسفة موضوعها الإنسان، فلسفة تنبع من مذهب إنساني يتفق مع حقائق الوحي وعلم الكونيات التقليدي. وفق هذا المنظور، الكائن البشري كونٌ صغير ينسجم مع الكون الكبير ويختصر في ذاته كلية الوجود(*)؛ فمعرفة الإنسان إذن تفتح الباب لفهم الكون. لم يكن الطب مجرد علم دنيوي مقيد في مجال الجسد ويهدف حصراً إلى نتائج ملموسة؛ إنه بالأحرى شكلٌ من الحكمة مندمجة في الهرمية الثقافية للإسلام وتستمد إلهامها من رسالته. وغالباً ما كان يطلق على الأطباء في العالم الإسلامي لقب «حكيم».

---

(*) تقول حكمة عربية: «الإنسان كونٌ مكتوب بخط صغير، والكون إنسان مكتوب بخط كبير».

اقترب المسلمون كثيراً من تلك المصادر الطبية اليونانية التي كانت تنسجم مع منظورهم الخاص، لكنهم زادوا على هذه المصادر بأبحاث أصيلة كثيفة. لقد ظل الطب الإسلامي يدرس في الجامعات الأوروبية حتى نهاية القرن الثامن عشر، عندئذٍ ما من أحد كان يجهل أسماء مثل **ابن سينا** الذي كان يلقب بـ «أمير الطب» والذي طُبع كتابه **القانون**، وهو بحث في الفيزيولوجيا وعلم الصحة وعلم الأمراض وعلم المداواة، عدداً كبيراً من الطبعات اللاتينية. **الرازي** (أبو بكر ابن زكريا الرازي) كان أيضاً مشهوراً باعتباره أول من كتب وصفاً لأمراض مثل الجدري والحصبة وأول من كتب في طب الأطفال. ثم اسم آخر يجدر ذكره هنا هو **ابن النفيس** الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل ميشيل سيرفيتوس بثلاثة قرون.

كانت الجراحة قادرة على إنجاز عمليات معقدة، مثل عمليات الساد، مستفيدةً من طرق لم يعرفها الغرب حتى القرن التاسع عشر مثل التخدير، الذي كان يُنفَّذ باستخدام مسكنات مختلفة، والتعقيم، الذي كان الغَوْل أهم أدواته. معظم المدن ذات الأهمية كانت تحوي مشفى، حيث تتم العناية بالمرضى مجاناً. وزاد كثيراً عدد الأدوية المستخدمة التي كانت في الغالب الأعم «عضوية»، وقد أدت إلى معرفة عميقة بعالم النبات.

تأثر نمط حياة المسلم إلى حد بعيد بالطب الذي وضع، بالانسجام مع تعاليم الشريعة، سلسلة من القواعد الصحية السليمة تماماً فيما يخص الطعام والنظافة الشخصية. هذه القواعد شجعت على إنشاء الحمامات العامة والخاصة في كل مكان؛ حيث كانت تستخدم للوضوء أيضاً ولأهداف علاجية، فغالباً ما كان يوجد في هذه الحمامات مدلّكون مختصون.

وهكذا ماذا تبقى من هذه الحضارة العظيمة، المتوازنة والمتّسقة

والنقية، التي، إضافةً إلى اعترافها بجمال هذا العالم، قدمت للإنسان كل فرصة ممكنة ليحقق تطلّعه المتعالي على أكمل وجه؟ بعض البقايا الجميلة، وبعض المخلَّفات البهيّة، ولكن أيضاً الكثير من الندم.

تعي الشعوب الإسلامية، التي تنظر إلى الخلف، إلى زمنٍ كانت فيه تقود باقي الأمم، والتي تحتفظ بشعور من الحنين إلى عظمتها السابقة، انحدارها بمرارة. أذلتها سيادة الغرب السياسية والعسكرية. لقد أثار الغزو المتزايد للمنتوجات الصناعية للغرب وعاداته وحتى طرق تفكيره، اضطراباً عميقاً في الرؤى ونماذج الحياة التي صاغتها قرون من التقليد المتجانس. الذي حصل هو «اغتراب» حطَّ من قدر القيم الخاصة بهذه الشعوب والمنبثقة من الإسلام، وفرض عليها قيماً جديدة مجلوبة من الخارج.

يبدو ركود العالم الإسلامي، قياساً بالديناميكية التي أظهرتها أوربا في كل المجالات منذ القرن السادس عشر، انحطاطاً نهائياً يدعو إلى الأسف. مع ذلك، ثمة ميل ظاهر للمبالغة بعقم الثقافة الإسلامية اللاحقة وللتقليل من قيمة العديد من الآثار الفنية الجميلة التي أنجزت في القرون الأربعة الماضية. بعض أجمل المساجد في الإسلام، كتلك التي بناها سنان في تركيا، أو مسجد الشاه في أصفهان، يعود تاريخها إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر. كما أن أحد أعظم التحف الفنية المعمارية على مرّ العصور، تاج محل في أغرا، بناه حاكم مسلم في بداية حكم لويس الرابع عشر. وعلى نحو مماثل، سقطت الهند تحت السيطرة الغربية، ولم يخبُ بعد بريق الثقافة المغولية.

أظهرت الفنون التقليدية حيوية في معظم البلاد الإسلامية الأخرى أيضاً. بيد أن الحياة الفكرية الأصيلة بدتْ في سُبات، فالجامعات الإسلامية الكبيرة مثل الأزهر في القاهرة، والقرويين في فاس والزيتونة في تونس،

تكرر بلا نهاية كتلة قديمة من المعلومات دون أية محاولة لتجديدها.

مهما يكن من أمر، يجب التأكيد على أن هذه الحضارة، بالرغم مما قد تبدو عليه من كسل وخمول، فإنها تبقى على الأقل مخلصة للإسلام وتؤبّد قيمه الأساسية. لقد خسرت، بلا شك، مفاتيحَ القوة الدنيوية، لكنها فازت بمفاتيح السماء، وهذا هو المهم في نهاية التحليل. أما الغرب فقد اتبع الطريق المعاكس، وانطلق يسيطر على العالم، تحت طائلة خسران الروح - رغم كل تحذيرات المسيح. على كل حال، كان من شأن العجز المادي الذي تعاني منه الشعوب المسلمة أن يقودها عاجلاً أم آجلاً إلى موقف ضعيف أمام الحداثة الغربية العدوانية، التي كان من شأنها ومن طبيعتها الداخلية أن تضرب المبادئ الأساسية للإسلام.

رغم هذا، يشعر اليوم معظم المسلمين، وهم يرون المظهر الخارجي للأمور، بغيظ مرّ «لانهزامهم» وبقائهم في موقع «متخلّف» قياساً بالغرب الحديث. يتساءلون غالباً لماذا بزغ فجر «التقدم» الجديد في أوروبا المسيحية ولم يبزغ في العالم الإسلامي. ويلحّ السؤال أكثر مع حقيقة أن المسلمين كانوا، في نهاية العصور الوسطى، يحوزون على كل عناصر المعرفة التي كان يمكن أن تجعلهم يشرعون بحقبة مشابهة من الحداثة: في الحقيقة إن الغربيين ما كان لهم أن يكسروا إطار الفكر القروسطي التقليدي ويشرعوا بنهضتهم لولا استعاراتهم من الحضارة الإسلامية.

تتعلق هذه المسألة ببعض ملاحظاتنا السابقة في هذا الكتاب عن ميول الحضارة المعاصرة. برغم آراء عدد من المسلمين التقدميين، تبدأ الحداثة الغربية، التي كانت السبب المنطقي للأزمة الحالية، من روح تتنافى تماماً مع الإسلام وحتى مع المسيحية نفسها، (إذا حكمنا اعتماداً على انحطاط الكنائس). لاشك أن الحضارة الغربية أنجزت فتوحات مذهلة في

هذا العالم، ولكنها، لافتقارها إلى المبادئ المتعالية، وبالتالي الاتساق مع السماء، عجّلتْ في انهيار «إنسانيت»ها وانتهت إلى عدمية معممة مقرونة بالتهديد بكارثة كونية. لم يكن للحضارة الإسلامية أن تنهج هذا المنحى من التطور دون أن تخون نفسها، وهذا ما يفسر في النهاية لماذا وُلِدَ العالم الحديث في أوروبا وليس في البلاد الإسلامية.

لا تهدف هذه الملاحظات إلى التلميح إلى أن الإسلام يجابه التقدم العلمي والحضارة. فمنذ لحظة خروج الجيوش الإسلامية الأولى من صحراء شبه الجزيرة العربية، يشهد كل التاريخ الإسلامي على أن الإسلام لا يجابه العلم ولايجابه الحضارة. الإسلام يفرض حدوداً على كل ما يحمل دفعة «تقدم»، فهو يدرك الحاجة للحفاظ على توازن العالم المخلوق ولإعطاء الإنسان فرصة إنجاز تطلعه السامي الذي دعاه الله إليه. ولهذا سيبقى الإسلام في حالة تنافر دائم مع النظرة المعاصرة بالتحديد التي تنطبق عليها بالتمام الآية القرآنية التالية: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ /الروم، ٧/.

# نصوص أصلية

## العلم والحقيقة

* ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ /الطارق ـ ٥/.

* ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شيء﴾ / الأعراف ـ ١٨٥/.

* ﴿ويرى الذين أوتوا العلمَ الذي أُنزل إليكَ من ربكَ هو الحقُّ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ /سبأ ـ ٦/

* ﴿ولاتَقْفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ /الإسراء ـ ٣٦/.

* ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ /المجادلة ـ ١١/.

«اطلب العلم ولو في الصين»

حديث للرسول (عليه الصلاة والسلام).

البحث عن المعرفة تكليف سماوي وهو فرض كفاية. عندما يؤدي

البعض هذا الواجب يسقط إلزامه عن الآخرين، ما عدا المعرفة الضرورية لكل مؤمن.

ابن أبي زيد القيرواني

رسالة (بحث في القانون الإسلامي وفق المذهب المالكي).

## حضارة أسيء فهمها

لا يقدِّر معظم الأوروبيين أهمية التأثير الذي تلقوه من الحضارة الإسلامية، أو طبيعة ما استعاروه منها في الماضي، حق قدره؛ ويذهب بعضهم إلى حد إهمال كل ما يتعلق بها جُملةً. السبب يعود إلى أن التاريخ الذي تعلموه يعطي صورة زائفة عن الحقائق، ويبدو، في أكثر من مجال، كما لو أنه مشوَّه عمداً. إنهم يتلطّفون قليلاً ويعطون اعتباراً ما للثقافة الإسلامية، ذلك لأنهم اعتادوا أن يشوهوا سمعتها في كل مناسبة. تجدر الإشارة إلى أن التاريخ الذي يدرسونه في الجامعات لا يُظهر التأثيرات الإسلامية على حقيقتها. على العكس، غالباً ما يتم استبعاد الحقائق التي يجب قولها، خاصة بما يتعلق بأكثر الأحداث أهمية.

مثلاً، من المعروف عموماً أن إسبانيا عاشت تحت القانون الإسلامي عدة قرون، لكن لا يقال أبداً إن الشيء نفسه ينطبق على بلاد أخرى مثل صقلية وجنوب فرنسا. هناك من يعزو هذا الصمت الذي يمارسه المؤرخون، إلى نوع من التحامل الديني. ولكن ماذا نفعل حيال المؤرخين المعاصرين، الذين معظمهم لا دين له أو معادون لكل دين، عندما يكررون كلام أسلافهم، في انتهاك صارخ للحقيقة؟

إننا ملزمون، لذلك، على أن نرى في هذا التجاهل واحدة من نتائج

الغرور والوقاحة من جانب الغرب؛ غرور ووقاحة يمنعانه من الاعتراف بالحقيقة وبمدى مديونيته للشرق.

أغرب ما في هذه الظاهرة هو نظرة الأوربيين إلى أنفسهم كورثة مباشرين للحضارة اليونانية رغم أن الحقائق نفسها تكذب هذا الادّعاء. الحقيقة الواضحة في التاريخ تثبت على طول الخط أن العلم والفلسفة اليونانيين انتقلوا إلى أوروبا عبر وسطاء إسلاميين.

رينيه غينون. دراسات تقليدية. أيلول ١٩٥٠

## سكينة تتاخم النعيم

إذا قارنّا استقرار المؤسسات لدى الشرقيين، واستسلامهم أمام الأحداث التي جرت أو التي لا يمكن تفاديها، والأخوّة الموجودة بين جميع الطبقات؛ بالثورات اللامتناهية والحياة القلقة والمحمومة، والتنافس الاجتماعي لدى الشعوب الأوروبية؛ نجد أنفسنا أمام تفارق صاعق.

غايةُ التهذيب واللطف، صبرٌ جميل على الناس والأشياء، هدوء ووقار في كل الظروف والحالات، اعتدال كبير في الحاجات؛ هذه هي الصفات المميزة للشرقيين. إن قبولهم الهادئ للحياة يعطيهم سكينةً في الروح قريبةً جداً من النعيم، في حين تقودنا مطامحنا وحاجاتنا المصطنعة إلى روح دائمة الاضطراب أبعد ما تكون عن النعيم.

غوستاف لوبون ـ حضارة العرب.

## الجنة المحجوبة

يتألف الجامع عادةً من فِناء يحوي فِسقية، حيث يمكن للمؤمن أن يتوضأ قبل قيامه بالصلاة. وغالباً ما تكون الفسقية محمية بقبة على شكل

مظلة. الفِناء الذي تتوسطه فسقية، إضافة إلى الحديقة المغلقة التي ترويها أربعة جداول صغيرة تنبع من وسطها؛ أشياء مصممة كي تحاكي الجنة، فالقرآن يتحدث عن **جنات النعيم**، حيث تتفجر ينابيع الماء، ينبوع أو ينبوعان في كل جنة، وحيث تقطن العذارى السماويات. إن من طبيعة الجنة أن تكون محجوبة وسرّية؛ تتماشى مع العالم الداخلي، مع باطنية الروح. هذا هو العالم الذي يجب أن يحاكيه البيت الإسلامي: فناؤه الداخلي مسور بالجدران من كل الجهات، وحديقته المغلقة مزوّدة بفسقية أو بئر. البيت هو حرم العائلة، حيث تحكم المرأة ويكون الرجل مجرد ضيف. إن الشكل المربع للبيت يجاري القانون الإسلامي في الزواج، الذي يسمح للرجل بالاقتران مع أربع نساء شرط أن يعدل بينهن. البيت الإسلامي مغلق تماماً على العالم الخارجي ـ حياة العائلة منسحبة من الحياة الاجتماعية العامة ـ ومفتوح فقط من الأعلى، مفتوح على السماء التي تنعكس في الأسفل، في فِسقية الفِناء.

تيتوس بوركهات ـ الفن المقدس في الشرق والغرب.

## المكتبات، كنوز المعرفة

تألفت مكتبة قصر سامانيد في بخارى، كما يخبرنا ابن سينا (ت، ١٠٣٧) الذي عمل فيها، من قصر منفصل يضم عدة أقسام، يحوي كل قسم عدداً هائلاً من الرفوف مرتبة فوق بعضها البعض. خصص كل قسم لفرع معين من العلوم؛ فقه اللغة، الشعر، القانون، وهكذا. وكان ثمة دليل حسب الموضوعات. «وجدتُ فيها كتباً، لم يعثر عليها أحد في أي مكان آخر» يُبدي ابن سينا عجبه.

مكتبة العزيز (٩٧٥ ـ ٩٩٦) في القاهرة القديمة أجمل المكتبات قاطبة. ضمّت ١,٦٠٠,٠٠٠ مجلداً، منها ٦,٥٠٠ تهتم بالعلوم الرياضية، و١٨,٠٠٠ بالفلسفة، يعجب المرء في هذا المكان، إضافة إلى

مختلف الأدوات الفضائية والقبب المجسمة، بخارطة للعالم مصنوعة من الحرير الأزرق، «تحمل تلويناً للقارات والمحيطات والأنهار والطرق والجبال والمدن المقدسة وغيرها وقد كُتبت أسماؤها بحروف من ذهب». لقد اشترى العزيز كتباً باهظة الثمن كانت ترسل إليه عبر أتباع له منشورين في كل بقاع العالم الإسلامي، كما كان لديه مجموعة كبيرة من المخطوطات بخط مؤلفيها وأعمال كانت فريدة في العالم كله.

أسس الحكيم (٩٩٦ - ١٠٢١) أيضاً مكتبة جديدة في القاهرة القديمة، ضمت ٦٠٠,٠٠٠ مجلداً، دُعيت «قصر المعرفة».

علي مزاهيري. الحياة اليومية للمسلمين في العصر الوسيط.

# الفصل السابع

# عائلات وطرق روحية

الرحابة الروحية واللُحمة ميّزتا حياة أول مجتمع إسلامي خلقه الرسول في المدينة. اشتملت شخصية الرسول كل صفات الاكتمال البشرية والطهارة، جامعةً في ذاتها كل الجوانب الكيفية للخلق؛ لقد كان الرسول **الإنسان الكامل** كما سيصفه الصوفيون ذات يوم. وكان صحابته من حوله أنقياء أيضاً، نقاءً يليق بمكانتهم المحمودة، باعتبارهم الصف الأول الذي توجّه إليه الوحي الإسلامي. ومثلهم مثل حورايي المسيح، لم يكونوا معصومين عن الهفوات البشرية، لكنهم أظهروا فضائل وامتيازات كثيرة في خدمة الله ورسوله بحيث أن المسلمين، إلى يومنا هذا، ينظرون إليهم كقدوة ويسعون لاقتفاء أثرهم.

بقيت الدولة الإسلامية في ظل الخلفاء الأربعة الذين خلفوا الرسول مباشرة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، المعروفين باسم الخلفاء الراشدين، التعبيرَ الكاملَ عن مُثُل الإسلام وتطبيقها في المجتمع البشري. لقد امتلك مجتمع المؤمنين كل الشروط والمواصفات التي تسمح لدين الرسول بالانتشار عبر العالم بنفس النجاعة التي كسب بها الأرواح للحياة الآخرة. الخلفاء أنفسهم كانوا رجالاً عمليين وقادة سياسيين وأسياداً روحيين أفذاذاً.

حقق أول الخلفاء الراشدين، أبو بكر، الذي كان الصديق المقرّب من الرسول، مزجاً قوياً لهذين الجانبين من الإسلام، الظاهر والباطن، اللذين كثيراً ما تم فصل أحدهما عن الآخر في العصور اللاحقة. فمن جهة أولى، حباه الله بفطنة سياسية وعسكرية بارزة مكنته من تعزيز سلطة الدولة الإسلامية الفتية وتقوية بُناها واضعاً في الوقت نفسه، أسس الفِقه (فلسفة التشريع الإسلامي) عبر صياغة مبادئ الاجتهاد (السعي الشخصي في البحث). ومن جهة ثانية، كان «صوفياً»، إذا فهمنا من هذه الكلمة: الرجل الذي له معرفة «بالأسرار». وقد نقل هذه المعرفة إلى من هم جديرون بها، ويخبرنا التقليد أنه أول من أوصى بالممارسة المنهجية للذكر والتضرّع إلى الله. لهذا السبب تُرجع الأخويات الصوفية نسبها غالباً إليه، وعبره إلى الرسول نفسه.

تركت شخصية عمر بن الخطاب بصمات أعمق في الوعي الإسلامي، على اعتبار أن فترة حكمه امتدت إلى ما يزيد على عشر سنوات، في حين حكم أبو بكر سنتين ونصف فقط. تمتع الخليفة الثاني بشخصية قوية على نحو استثنائي مكنته من ممارسة أعلى الفضائل العامة والشخصية، وفي الوقت نفسه، من تطبيق مُثُل الإسلام العظيمة على عموم المجتمع بشكلٍ لم يتكرر بعده.

عاش عمر بن الخطاب حياة تقشف شديد، فحتى حين جعلته فتوحات قادته العسكريين أقوى زعيم دولة في الشرق الأوسط، بقي يأكل ويشرب بتواضع كسائر محكوميه. ثمة فصلٌ شهير يتعلق بوصوله إلى القدس كي يتلقى استسلام المدينة: جاء يرتدي ثياباً خشنة، يرافقه خادم واحد ومعهما جمل واحد يتبادلان الركوب عليه. يتكلم التقليد أيضاً عن

أمثلة أخرى كثيرة تدل على غيريته التامة وإدراكه الحي لمساواة البشر أمام الله. لم يكن يقبل الامتيازات لنفسه، ومنع حكامه وقضاته وموظفيه من ممارسة أي معاملة تمييزية مع الأغنياء وذوي النفوذ. وهكذا فقد أمر أن يُجلد ابن عمر بن العاص، فاتح مصر، لأنه ضرب قبطياً دون سبب وجيه.

كان الخليفة الثاني يسهر شخصياً على سعادة الجميع، ويهتم مباشرةً بشروط حياة العامة. فقد كان من عاداته أن يتجول في شوارع المدينة مستتراً دون أي مرافقة، سائلاً الناس عن مشاكلهم اليومية كي يعالجها على الفور. لقد نظم إدارته بطريقة يخضع فيها كل شيء لمبادئ العدالة والتكافل، اللذان اعتبرهما أهم متطلبات الإسلام، إلى حد أن الإصلاحيين المسلمين المعاصرين لم يقدروا على إيجاد من هو أفضل منه كنموذج لأفكارهم عن العدالة الاجتماعية. ومع إلحاحه على هذه الجوانب الخارجية و«الاجتماعية» للدين، فإن عمر بن الخطاب شهد كمالاً داخلياً ألهم أجيالاً من المتصوفين.

مثّل الخليفتان الثالث والرابع الكمال نفسه في الخصائص الروحية والبشرية، سواء في أفعالهما أو في وجودهما ذاته. رغم أن الرواة يشيرون إلى أن عثمان كان يحابي أقرباءه، إلا أن الرجل كان مثالاً للنبل والكرم بشكل لا يمكن إنكاره. وكان نزوعه إلى الخير مضرباً للمثل، كما أنه ترك عدداً من الأقوال الجميلة التي تنصح باللطف والاعتدال في العلاقات البشرية.

أما علي، الذي اعتبره الشيعة أحق بخلافة الرسول من بقية الخلفاء الراشدين، وهو ابن عم الرسول وخِدنه، فقد لامه البعض لنقص كفاءته

السياسية، لكن لا أحد ينكر عليه كونه رَجل فعل وتأمل لا مثيل له. فقد كان محارباً شهماً لا يَهاب، غامر بحياته غير مرة دفاعاً عن الإسلام والرسول، الذي قال في أحد أحاديثه: «أنا مدينة العلم، وعلي بابها». لا غرابة إذن أن غالبية التيارات الصوفية في الإسلام تتعرف فيه على مَنهلٍ لها.

أغلق موت علي العصرَ السعيد حين كان زعيم مجتمع المؤمنين، بدءاً من الرسول مروراً بالخلفاء الأربعة الأوائل، يحوز سلطةً جوهرية، وسلطة روحية بقدر ما هي زمنية. ولا بد من التأكيد على أن النزاعات التي اندلعت إبان حكم الخليفة الرابع، التي جعلت المؤمنين في صراع فيما بينهم، لا علاقة لها بالإيمان ولا بالدين: كانت نزاعات سياسية، كونها تركزت حول موضوع الخلافة. فالأمويون، الذين خرجوا منتصرين وادّعوا الخلافة، كانوا أساساً قادة سياسيين؛ وباستثناء عمر بن عبد العزيز، الذي كان حكمه ظهوراً أخيراً خاطفاً لشكل الحكم الإسلامي المثالي، كانوا جميعاً حكاماً زمنيين، ولو أنهم ظلّوا يلقبون أنفسهم بـ «أمراء المؤمنين».

إن الانقسام الكبير في الإسلام يعود في تاريخه إلى هذه الفترة: السنة (٨٥ ـ ٩٠٪ من مسلمي العالم) والشيعة (١٠ ـ ١٥٪) والخوارج أو الإباضيين (عددهم قليل جداً). علينا أن نؤكد هنا أن الانقسامات هذه لم تتم على أساس اختلافات مذهبية حقيقية، بل بالأحرى على قضايا تفسير وتطبيق القانون الديني، سواء على مستوى الفرد أو الأمة.

منذ ذلك الحين، وَضَعَ معيارُ الحقيقةِ والانسجام مع **الرسالة** الموحاة، أي ما يمكن تسميته «الأورثوذكسية»، حدوداً لا يمكن للأفراد أو للجماعات انتهاكها تحت طائلة الاستبعاد من الأمة، مجتمع الرسول. وحتى اليوم، ما من

رجل دين، حتى من بين أكثرهم حداثةً، يجادل في «المعتقدات الضرورية»(*).

نشأ، ضمن هذه الحدود الواضحة والقطعية، عدد كبير من التيارات والميول، التي تبلورت على شكل جماعات منسجمة ـ سنستخدم هذا المصطلح لترجمة الكلمة العربية «فِرقة وجمعها فرق»، لكي نتجنب استخدام كلمة «طائفة» التي تكون دائماً عرضة لسوء التفسير. وعلى اعتبار أن كل فرقة تدّعي، بداهةً، أعلى درجة من الإخلاص للرسالة الأصلية، أو تدّعي أنها تعطي التفسير الأدق والأكمل؛ فإن الجدالات كانت أمراً لا محيد عنه. جرت المجادلات تكراراً وبحماس يصل أحياناً إلى حد التكفير المتبادل. وحتى اليوم لاتزال هذه الخلافات بعيدة عن الحل، ولم يختفِ كلياً الشك المتبادل بين الكثير من الفرق.

على العموم، ورغم أن هذه الفرق المتنوعة تعود دائماً إلى الحقبة النموذجية الممتازة، حقبة الرسول والخلفاء الراشدين، مع اختلاف في التركيز: بعضهم يركّز أساساً على الجوانب الخارجية والاجتماعية لدار الإسلام البدائي، وبعضهم يبحث عن كمال داخلي روحي. الاتجاه الأول تظاهر في العديد من المدارس الفلسفية واللاهوتية الإصلاحية، في حين مثّل الثاني ولايزال يمثله الباطنيون والصوفيون. حدث في أوقات معينة

(*) نرى في هذا العصر اعتراضات، حتى في الدوائر اللاهوتية المسيحية، تطال عُذرية مريم والولادة الإعجازية للمسيح وصعوده إلى السماء في ختام حياته الأرضية؛ من الممتع أن تلاحظ في هذا العصر نفسه أن المسلمين يقبلون حرفياً وبلا نقاش، هذه المعلومات التقليدية بخصوص «سيدنا المسيح»، والتي هي أرضية مشتركة بين الإسلام والمسيحية. إنها واقعة تشهد أفضل من غيرها على صحة الادعاء الذي نسمعه من المسلمين أحياناً حين يقولون: «نحن المسيحيون الحقيقيون!».

تعارض وسوء تفاهم بين الاتجاهين، رغم أنه بات من الصعب، بعد زمن الغزالي (توفي ١١١١)، إنكار حقيقة أن كليهما يشكل مكوناً متمماً ولايُستغنى عنه لأكثر أشكال الإسلام صدقيةً.

في هذه الأثناء، فتح الاحتكاك مع الحضارات الأخرى والاصطدام مع الميراث الفكري للعصور القديمة، سبلاً جديدة أمام الفكر الإسلامي الذي تبنى، من هذه المصادر الأجنبية، العناصر التي تتماشى مع منظوره الخاص، ودمجها في أحد التيارين الرئيسيين اللذين أتينا على ذكرهما آنفاً. وهكذا نشأ في الفترة العباسية، تحت تأثير الفلسفة الهلنستية، وتحديداً تحت تأثير أفلاطون وأرسطو اللذين أصبحت أعمالهما في المتناول بفضل المترجمين العرب، التيارُ الفكري المعروف باسم **الفلسفة**. بعض ألمع الأسماء في الحضارة العربية الإسلامية مثل الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد كانوا من بين الفلاسفة الذين وجدوا أنفسهم في معارضة علماء الكلام (اللاهوت التبريري) الذين اعتبروا أن فكر الفلاسفة بالغ في «دنيويتِهِ» واعتمادِهِ على مصادر غير إسلامية.

دمج الكلام تيارين رئيسيين. أولهما تيار المعتزلة الذين بتأكيدهم على مفهوم الإرادة البشرية الحرّة، أُطلق عليهم غالباً اسم «عقلانيي» الإسلام. وجد هؤلاء أنفسهم مدافعين عن الدين الإسلامي في وجه التأثير البالغ للفلسفة القديمة، وهم يتوسلون، كالفلاسفة أنفسهم، وسائل العقل. أكد المعتزلة على أن القرآن مخلوق مباشر من الله، وقد حوربوا منذ القرن التاسع من مدرسةٍ أسسها رجل الدين أبو موسى الأشعري، الذي قال بالطبيعة غير المخلوقة للكتاب الموحى وباستحالة إدراك السر الإلهي. خرج الأشاعرة من النزاع منتصرين، ومنذئذٍ يعلِّم الدين الإسلامي أن القرآن،

كلمة الله، غير مخلوق. ظلت الأشعرية تبدي الاعتراضات والتحفظات حول نقاط أخرى في الدين، مثل استخدام العقل في الدفاع عن الإيمان، خصوصاً من جانب رجال الدين الحنبليين والحنفيين؛ لكن هذه التباينات كانت صغيرة لم يكترث بها المؤمنون في غالبيتهم.

ظل الإسلام السني، عموماً، أميناً للآية القرآنية التي تقول: ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً﴾ البقرة - ١٤٣ . التي يترجمها البعض: «أمةً بعيدةً عن التطرف»، والتي تتضمن أثراً من أكثر صيغ الإسلام عبقريةً. على كل حال، لم يكن مِثال «الوسط الذهبي» هو ما ألهم كل الحركات التي زعزعت العالم الإسلامي عبر القرون، فهناك حركات ولّدت مختلف أنواع التطرف. لا بد لنا هنا من ذكر «ثورة القرامطة» على نحو خاص، هذه الثورة التي هزّت أركان السلطة العباسية في القرن العاشر. هاجم القرامطة، الذين يعودون إلى الإسماعيليين، وهم فرع من الشيعة لكنهم تبنوا عناصر مذهبية مختلفة غريبة عن الإسلام؛ النظامَ الاجتماعيَ القائم ومارسوا نوعاً من الشيوعية في الدولة التي أسسوها في (الحصى). أشهرت مجموعات أخرى، منبثقة من الفرع نفسه من الشيعة، نفسها في الوقت المناسب، بعضها، مثل الدروز والعلويين، لايزال له وجود حتى اليوم في الشرق الأدنى.

أثار الحنين إلى العصر التأسيسي، حركاتٍ أخرى، في لحظات متنوعة من التاريخ، عبّرتْ عن تصميمها على العودة إلى النقاء الأصلي للإيمان بإلغاء البِدع التي اعتُبرتْ انحرافات عن السنة النبويّة الشريفة. في أغلب الأحيان كان مؤسسو هذه الحركات من أصل بدوي، منهمرين من الصحارى أو الجبال، ولهذا فإن تجديد الإسلام السني في الشرق كان،

إلى حد كبير، من عمل سلالات من أصل تركي أو كردي.

وعلى نحو مشابه في شمال أفريقيا، أصبح الزعماء غير العرب أبطال الإسلام السني. من حدود السنغال انحدر المرابطون أو «شعب الملاذات الحصينة»، وانداحوا في الصحراء جاعلين من أنفسهم أسياد شمال أفريقيا كله وإسبانيا المسلمة، حيث فرضوا تطبيقاً صارماً للمذهب الفقهي المالكي. إن زعيمهم يوسف بن تاشفين هو الذي أسس مدينة مراكش عام /١٠٧٠/. وفي القرن التالي ظهرت قبيلة بربرية من الأطلس العالي بزعامة مصلح جديد، ابن تومرت، الذي دعا إلى العودة إلى منابع الإسلام وإلى تفسير غير توفيقي **للتوحيد**، مذهب **الوحدة الإلهية**. كما أعلن أنه المهدي الذي تقول عنه مختلف الروايات أنه سيؤسس حكم العدالة على الأرض. وقد سمى أتباعه أنفسهم الموحدون، ومنه اشتقت تسمية أسرة الموحدين التي سيطرت على الغرب الأقصى من العالم الإسلامي حتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

لم تفارق «روح الإصلاح» هذه، المرتبطة غالباً بتوقّع المهدي المنتظر، الوعيَ الإسلامي. وغالباً ما اتخذت طابعاً «أصولياً» يستند إلى التفسير الحرفي للقرآن والسنة، بحثاً عن إحياء إسلامٍ نقيٍ من البِدع التي لا تتوافق بالضبط مع رسالة الوحي.

وجد هذا الاتجاه، في العصر الحديث، تعبيراً متحمساً في الحركة الوهّابية، حركة دينية يعود تاريخها إلى القرن الثامن عشر ولاتزال نشطة ومؤثرة على نحو لافت حتى اليوم. لقد كانت، ولاتزال، العامل الملهم للأسرة السعودية التي تحكم اليوم معظم شبه الجزيرة العربية.

ولد محمد ابن عبد الوهاب، الذي تأخذ الحركة تسميتها منه، في

منطقة نجد وسط شبه الجزيرة العربية، بداية القرن الثامن عشر. سافر، بعد أن درس الفقه الحنبلي، إلى العراق وإيران. وتأثر على نحو خاص «بالحنبلية الجديدة» لرجل الدين الكبير ابن تيمية الذي هاجم، قبل أربعة قرون، عدداً من الممارسات التي اعتبرها متنافية مع الإسلام الأصلي، مثل تبجيل الأولياء وزيارة قبورهم؛ كما حارب بقوة الفلاسفة من جهة والصوفيين والباطنيين من جهة أخرى.

ذهب ابن عبد الوهاب بهذا الاتجاه إلى مدىً أبعد، داعياً إلى إسلام صارم يقوم على التطبيق الحرفي للشريعة. وقد كسب دعم عدد متنامٍ من الأنصار الذين أعلنوا إيمانهم بتوحيد غير توفيقي وأطلقوا على أنفسهم اسم (الموحدون). وجدت الجماعة الجديدة زعيماً لها في شخص الأمير محمد بن سعود، وهو سيدٌ بالوراثة لإمارة في نجد، حول مقاطعته إلى أول دولة يمكن أن تُدعى وهابية شرعياً.

خلال السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، شنَّ ابن وخليفة محمد بن سعود، عبد العزيز، يقوده الحماس لتطهير وإعادة إحياء العالم الإسلامي باخضاعه للمبادئ الوهابية وقواعدها في الحياة، حملةً عسكرية قادت مقاتليه إلى واحدة من أكثر المجازفات العسكرية بروزاً، لم تشهد الجزيرة العربية مثيلاً لها منذ عهد الرسول والخلفاء الأوائل. حققت الوحدات الوهابية المقاتلة نجاحات باهرة وسرعان ما أَخضعت كامل الجزيرة العربية تقريباً، ثم اندفعت نحو الشمال، لتجد نفسها بعد وقت قصير أمام أسوار بغداد ودمشق. أدرك الخليفة العثماني خطورة الأمر، فاستجار بالجيش المُحدَّث لواليه على مصر، الذي انتصر على القوة العسكرية الوهابية، بعد حملة عسكرية شاقة وطويلة. ووقع الزعيم

الوهابي، عبد الله بن سعود، أسيراً ثم أعدم لاحقاً في اسطنبول. كل المظاهر كانت تشير إلى أن الجماعة قد تحطمت إلى الأبد.

على كل حال، بقي المذهب الوهابي حياً في المناطق الشرقية والوسطى من شبه الجزيرة العربية، وهذا ما جعل إحياء الدولة السعودية ممكناً في مستهل القرن العشرين؛ ونفخ الروح في محاربي عبد العزيز الجديد، الذي يعرفه الغرب باسم ابن سعود، الذي استولى عام ١٩٢٤ على أهم مكانين مقدسين في الإسلام، وأعلن عام ١٩٣٢ المملكة العربية السعودية حيث فُرض التَّزمُّت الوهابي. دُمّرت جميع قبور الأولياء، وكانت كثيرة في تلك المنطقة، كما حظرت كل الممارسات التي اعتبرت خرافية. مع ذلك، ساد القانون والنظام، وكان بإمكان الحجاج المسافرين إلى مكة والمدينة الاطمئنان إلى أنهم في أمان تام.

حافظت الوهابية على موقع مسيطر في المملكة العربية السعودية في ظل خلفاء عبد العزيز. لكن الاحتكاك المستمر والمتنامي للمملكة مع العالم الخارجي كان من شأنه أن يجعلها أكثر مرونةً وأقل تزمتاً.

عارض الوهابيون، مقتفين أثر ابن تيمية، كل أشكال الباطنية التي تصنف عادة تحت اسم الصوفية، وهذا الحظر ملموس في الدولة السعودية. في هذا المجال، وجدوا أنفسهم على اتفاق مع بعض التيارات الإصلاحية الأخرى التي ظهرت في العالم الإسلامي منذ القرن التاسع عشر، ولكن التي تأثرت نوعاً ما بالحداثة. الحركة السلفية (السلف هم المسلمون الأوائل)، كما تجسدت في شخصيات مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، والتي مارست تأثيراً عميقاً في كل من مصر وسورية، تعي نفسها

أيضاً على أنها عودة إلى النقاء البدئي للإسلام، ولكنها في الوقت نفسه تحاول أن تصالح الإسلام مع القيم الغربية الحديثة. وهذا ما دفعها، بشكل طبيعي، لمعارضة الأخويات الصوفية معتبرةً إياها ممارسات خرافية متهافتة، مثل المرابطية(*). ذهب بعض هؤلاء الإصلاحيين بعيداً إلى حدٍّ اعتبار التصوف نفسه غريباً عن الإسلام والنظر إليه كنتيجة من نتائج الفساد التي تغذيها تأثيرات خارجية(**).

الصوفية، التي لا علاقة لها بالمرابطية أو ببعض العروض غريبة الأطوار التي تقدمها بعض الأخويات، هي، أساساً، تعميق واستبطان للإسلام. إنها بالتالي يمكن أن تكون موجودة حقاً دون أن تحتاج إلى أن تعلن نفسها على الملأ، ولهذا قد يكون من الصعب معرفة أنها موجودة أم لا. الأكيد أنها مارست على طول الخط فعلاً جاذباً لتلك الأرواح المولعة بالتأمل والتي تتوق إلى الكمال الروحي.

اشتقت كلمة «التصوف» من عباءة «الصوف» التي كان يرتديها المتصوفون الأوائل، الذين كانوا يُعرفون عادةً باسم «الفقراء» أو «الدراويش» بالفارسية (ومن هنا جاءت إلى الانكليزية كلمة «Fakir» وكلمة «Dervish») إشارةً إلى الآية القرآنية التي تقول: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾ /فاطر، ١٥/، «الفقر» هنا يشير إلى موقف من الانعزال الروحي النابع من تفضيل العالم الآخر على متع هذا العالم، ومن انطفاء الإنسان أمام **الحقيقة الإلهية**.

---

(*) المرابط: درويش في أفريقيا المسلمة يُعتقد أنه يمتلك قوة خارقة للطبيعة. م.

(**) اعتاد عدد من المستشرقين الغربيين على دعم هذا الرأي، إذ يرى هؤلاء أن التصوف الإسلامي نابع من تأثيرات مسيحية ومزدكية وهندوسية وغيرها. خسر هذا الرأي الكثير من قيمته بعد أعمال علماء مثل ماسينون حول الأصول الإسلامية للتصوف.

وُجدت الصوفية، حسب قول أنصارها، قبل أن تؤطَّر بأية تسمية بزمن طويل؛ فقد كانت مضمرة، بشكل ما، زمن الرسول الذي أدرك صحابته المثل الروحية للإسلام على نحو أكمل مما أدركها المسلمون اللاحقون. أضف إلى ذلك أن القرآن والحديث يزخران بتعاليم صوفية يعود إليها الصوفيون ليبيّنوا أنهم يسلكون سبيلاً نابعاً من **الوحي** مباشرة.

الشخصية التي يُنظر إليها باعتبارها تقف على رأس شجرة العائلة الروحية الكبيرة للتصوف هي **الحسن البصري** (من البصرة جنوب العراق). ولد الحسن في المدينة زمن حكم عمر بن الخطاب الذي جنّده مرةً في جيشه. تقول الروايات أنه سمع تعاليم الإمام علي، خِدن رسول الله، وأنه قضى حياته كلها في تطبيق هذه التعاليم. انتشرت أخبار ورعه في كل أرجاء الدولة الإسلامية، وكان الرجل الوحيد الذي يجرؤ على معارضة الخلفاء الأمويين المشهورين بقلّة التقوى. استمد **عمر بن عبد العزيز**، الذي شكّل، بنزاهته المرموقة، استثناءً بين أبناء السلالة، إلهامَه من نصائح الحسن البصري الذي كتب إليه من البصرة الرسالة التالية: «احذر من هذا العالم كل الحذر؛ إنه كالأفعى ناعم الملمس لكن سمه قاتل. انصرف عن كل مسرّاته لأنه عابر»(*) وقال أيضاً: «من يعرف الله ينصرف إليه ومن يعرف العالم ينصرف عنه»(*). تلخّص هذه الكلمات جانباً أساسياً من الطريقة الصوفية.

وفي البصرة أيضاً عاشت **رابعة العدوية** في القرن الثاني الهجري، وهي قدّيسة ذات تأثير عميق، ينسب إليها عدد من المعجزات. كانت أَمَة وعازفة ناي، عاشت حياة زاهدة مكرّسةً نفسها بالكامل لحب الله حباً غيرياً وحصرياً. كتبت قصائد صوفية غالباً ما وجد «الظامئون إلى الله» سعادةً في ترديدها.

سرعان ما ظهر متصوفون آخرون حتى في أقصى بقاع الإسلام،

---

(*) استشهد بها أ.ج. أربيري، الصوفية.

كان إبراهيم بن أدهم (القرن الثامن) واحداً من أهمهم، وهو سليل أسرة أمراء من بلخ في أفغانستان. تروى عنه قصصٌ تنويرية كثيرة، وكان أيضاً من أصحاب المعجزات. لكن «الفقر» كان كلمة مفتاحية في روحانيته، فالفقر بالنسبة له طريقة من الزهد الكامل. يقول: «الفقر كنز يدّخره الله في السماء، لا يمنحه إلا لمن يحب». التفَّ حوله الأتباع وظهرت «سلالة روحية» دُعيت غالباً «الطريقة الصوفية لخراسان» مجّدت فضائل الفقر والثقة والتوكّل على إرادة الله، إلى جانب الممارسة الطرائقية لذكر اسم الله.

ركز صوفيون آخرون على فكرة معرفة الله أو «الغنوص» إذا شئت. أمثال ذي النون المصري (ت ٨٦١) الذي خلّف عدداً من الدراسات والقصائد قرأ فيها بعض المستشرقين، خطأً، ميولاً من النزعة القائلة بوحدة الوجود: «يارب، لم أصغ أبداً إلى أصوات البهائم أو حفيف الشجر، إلى خرير الماء أو تغريد الطيور، إلى صفير الريح أو هزيم الرعد، إلا أحسست فيها شهادةً على وحدتك»(*).

عاش أشهر الصوفيين في بغداد، حيث ذاع صيتهم بفعل الاختلافات الكبيرة التي دارت حولهم. كانوا ينسبون أنفسهم، عموماً، إلى الميراث الروحي للحسن البصري، وقد مارسوا تأثيراً واسعاً في أرجاء الامبراطورية العباسية، ولايمكن إنكار مكانتهم المركزية في تاريخ الإسلام ودورهم في تطوير الفكر الديني الإسلامي.

كان **الجنيد** من بين أبرز المتصوفين واشتغل بفعالية كزعيم طريقة. خلّف

---

(*) استشهد بها أربيري. الصوفية.

عدداً كبيراً من التعاليم منها هذا التعريف: «الصوفية هي أن يميتكَ اللهُ لنفسك ويُحيِيَك فيه». وكان يلحّ على ضرورة الإخلاص الدائم والصارم لنهج الرسول: «كل الطرق الصوفية مغلقة إلا لمن يتبع خطى الرسول»(*). في الوقت نفسه، نصح أتباعه أن «لايسرفوا في الكلام»، وأن يتجنبوا أن يقولوا خارج الدوائر الصوفية ما يمكن أن يُساء فهمه ويسبب أذىً وقلّة احترام.

لم تُراعى نصائح **الجنيد** دائماً، لذلك نشأت حالة من النزاع مع السلطات الدينية التي أدانت عدداً من المتصوفين لاستخدامهم لغةً هرطقية وغير ورعة. المثالُ الأشهر على هذا كان حالة **منشور الحلّاج**. مع ذلك، لا بد من الإشارة إلى أنه كان للسلطات أسبابها في البقاء على حالة التأهب، فقد كانت السلطات مدركة لحجم الخطر الذي قد تسببه الحركات والجماعات الهرطقية، كالقرامطة الذين ظهروا في القرون الأولى من الإسلام؛ وبدا أن الكلام الذي يقوله بعض الصوفيين في أوقات غير مناسبة، نذيرُ خطرٍ مشابه.

اعترفت مذاهب دينية كثيرة بالصوفية، وهذا يعود، بدرجة كبيرة، إلى نفوذِ العالِم والفيلسوف الشهير **الغزالي** (١٠٥٨ - ١١١١) الذي غالباً ما كان يشار إليه بلقب **حجة الإسلام**. رجل دين ومشرّع ذائع الصيت، مارس التعليم الرسمي في بغداد، وانتابته، خلال هذه الفترة، أزمة شكٍّ بدأ في غضونها، كما يروي في سيرته الذاتية، يرتاب في كل علمه وفي كل مذاهب الدين. ثم اهتدى ثانية إلى اليقين بعد احتكاكٍ مباشر مع **الحقيقة** عبر الطرق الصوفية، ومنذ ذلك الحين راح يعلّم أن الصوفية تزوِّد بالسلاح الأمضى ضد الشك والكفر(**).

---

(*) استشهد بها لينغز، ما هي الصوفية؟

(**) ساعده في العودة إلى الإيمان قراءةُ (قوت القلوب) لأبي طالب المكّي، وأعمال المحاسبي. وتمتلئ صفحات مؤلفاته بمقتطفات من الجنيد وشبلي وأبي يزيد البسطامي وغيرهم من الصوفيين.

ورغم بقاء بعض رجال الدين، وخاصة المتشددون منهم، معارضين لأفكار الغزالي، فإن مكانته عموماً سمحت للصوفيين بالتصالح مع العقيدة الرسمية. ورغم أن التصوّف ظلّ يغذي بعض الاعتراضات الدورية، إلا أنه حاز على الاعتراف وامتلك حرية التطور، وولّد مختلف الطرق والأخويات التي منحت الحياة الروحية حيويةً لا غنى عنها في غالبية البلدان المسلمة.

عاش في الجيل التالي في بغداد سيدٌ قُدِّر له أن يشعّ نفوذاً هائلاً، ولايزال تأثيره إلى اليوم نافذاً على الكثير الكثير من المؤمنين: **عبد القادر الجيلاني** (١٠١١ - ١١٦٦) المعروف بـ «سلطان الأولياء» نظراً لمنزلته الروحية - خطيب مفوّه، شدّ إليه جموعاً غفيرة بثها توهجه داعياً إياها إلى التوبة وممارسة الذِكر وممارسة المعروف. تحوَّل يهود ومسيحيون إلى الإسلام لدى سماعه، ونُسب إليه عدد هائل من المعجزات وخصوصاً شفاء المرضى. قصائده التي يحتفي فيها بالثمل الصوفي وبالحب الإلهي أثارت الرعشة في أرواحٍ لا تُعد، ولاتزال تتردد حتى اليوم.

عبد القادر الجيلاني، الذي كان أيضاً رجل دين ممتاز، والذي التزم بإخلاص بقوانين الإسلام وممارساته، لم يدخل يوماً في صراع مع السلطات الدينية، بل استخدم نفوذه الروحي الذي لا يُقاوم، «لإيضاح» معنى الصوفية، مكملاً بذلك ما بدأه الغزالي. اعتُبر سيد الأولياء في بغداد، حيث يجتذب ضريحه أعداداً هائلة من الزوار؛ ولايزال أحد أهم الأولياء الإسلاميين شعبية، فالطريقة التي تحمل اسمه هي الأكثر انتشاراً في العالم الإسلامي.

خلال هذه الحقبة من التجدد الروحي لحضارة وصلت أوج

ازدهارها، عاش أولياء كثر آخرون في شتى أصقاع العالم الإسلامي، وخصوصاً في الغرب الأقصى. نذكر اليوم **أبا مدين شعيب** الخالد الذكر، إسباني الأصل، رحل إلى بغداد لمقابلة **عبد القادر الجيلاني**، ثم عاد إلى شمال أفريقيا. دُفِن قرب مدينة تلمسان، وضريحُه ثمة نصبٌ مبجل، وغالباً ما ينظر إليه على أنه كبير أولياء الجزائر(*).

محي الدين ابن عربي (١١٦٥ - ١٢٤٠) من أصل أندلسي أيضاً، ألّف عدداً من الأعمال الصوفية التي يدافع فيها عن مذهب وحدة الوجود، الفكرة التي لايزال يرفضها الشكل الكلاسيكي من الدين الإسلامي. مع ذلك حازت هذه الفكرة نفوذاً لابأس به، يشهد عليه لقب «الشيخ الأكبر» الذي يكنّى به ابن عربي، ولايزال الجامع الذي يجاور ضريحه في دمشق يحمل نفس الاسم(**)

أبو الحسن الشاذلي (١١٩٦ - ١٢٥٨) ولي نافذ آخر، أجبر على مغادرة بلاده تونس، لأن السلطات هناك غارتْ من منزلته، فقضى ردحاً طويلاً من حياته في الاسكندرية. كان سيده **عبد السلام ابن ماشيش**، الذي يرقد جثمانه قرب (تشاون) في جبال الريف المغربي، والذي كان هو نفسه من تلاميذ أبي مدين. كانت تعاليمه منتشرة بقدر ما كانت قابلة للاستمرار، ولاتزال الصلوات التي ألفها مستخدمة في عائلة روحية واسعة منسوبة إليه في شمال أفريقيا والشرق الأدنى. أسس طريقة تكاد تنافس طريقة الجيلاني من حيث عدد الأتباع.

---

(*) خلال حرب الاستقلال الجزائرية تبنى الرجل الذي سيصبح رئيساً للبلاد اسم «أبو مدين».

(**) دفن الأمير عبد القادر، المدافع الأسطوري عن الجزائر ضد الغزو الفرنسي في القرن التاسع عشر، والذي قضى سنوات حياته الأخيرة في دمشق، وكان بدوره صوفياً بارزاً، إلى جوار قبر ابن عربي. بعد استقلال الجزائر نقلت بقاياه إلى بلده الأصلي.

جدير بنا أن نذكر من بين تلامذته **ابن عطا الله** (ت ١٣٠٩)، مؤلف مجموعة الأمثال الشهيرة (الحِكَم) التي لاتزال تتمتع بشعبية واسعة اليوم سواء في اللغة العربية أو في الترجمات إلى لغات إسلامية أخرى مثل التركية والمالية. كان مدافعاً متحمساً عن الصوفية، كما هو واضح من جدالاته مع ابن تيمية.

إلى جانب الطريقتين الكبيرتين القادرية والشاذلية تأسست طرق أخرى كثيرة خلال الفترة نفسها. الطريقة ذات النفوذ الواسع في الهند وباكستان هي الطريقة التي تعود في أصلها إلى **معين الدين شيشتي** (ت. ١٢٣٦) الذي ساهم، عبر نفوذه الروحي، مساهمة كبيرة في نشر الإسلام. الكثير من الزوار يقصدون قبره في أجمر في راجستان بهدف الزيارة والتأمل.

الطريقة المولوية معروفة لدى الغرب أكثر من غيرها، بفضل «دراويشها الذين يدورون حول أنفسهم». تعود أصولها إلى **جلال الدين الرومي** (١٢٠١ - ١٢٧٣)، وهو ولي اخترقت سلطته القرون، ولم يقتصر تأثيرها في الامبراطورية العثمانية على مجال الدين بل تجاوزه إلى مجال السياسة. كان التطلع الأساسي لجلال الدين الرومي هو دعوة الناس إلى حب الله (المحبة) وتجديد اندفاعهم الروحي. لاتزال أعماله، وخصوصاً **المثنوي** (الذي يتألف من ٤٥٠٠٠ بيتاً من الشعر) الذي جعله من بين أعظم شعراء الصوفية، يلهم الشعر الإسلامي ويرشد النفوس في توقها إلى تعميق واستبطان إيمانها.

يتطلب ذكر كل الطرق وتفرعاتها صفحات كثر، كي نكشف إلى أي عمق تضرب الصوفية التي تمثلها هذه الطرق في وعي جميع الشعوب المسلمة. لكن دعونا نأخذ طريقةً شائعة في آسيا، على سبيل المثال، إنها الطريقة **النقشبندية** التي أسسها في القرن الرابع عشر **بهاء الدين نقشبند** من بخارى، والتي انتشرت في تركمنستان، بين السوفييت التتار، وفي تركيا

والصين والهند وجاوة. إنه مثال واحد فقط يُظهر إلى أي حد يدين الإسلام في انتشاره للطرق الصوفية التي كسبت من القلوب أكثر مما كسبته الدعاية التبشيرية أو غيرها من أشكال التأثير.

في حقبة لاحقة نشأت طريقة ذات طبيعة مختلفة نوعاً ما، نظراً للنفوذ الذي استخدمته في النضال ضد الاضطهاد الاستعماري الغربي. مؤسسها **محمد ابن علي السنوسي** (١١٩١ ـ ١٨٥٩) جزائري الأصل، كان من أتباع الطريقة القادرية ثم أسس لاحقاً، بعد إقامة قصيرة في مكة، الطريقة التي تحمل اسمه، والتي شاعت في مناطق عديدة من شمال أفريقيا والصحراء. في ظل ابنه وخليفته سيد محمد المعروف شعبياً بـ «السنوسي الكبير»، انتظم الكل على شكل امبراطورية صحراوية هامة يحكمها رجال الدين، طبقت قواعد الدين التقليدي بحزم ولعبت دوراً هاماً في مجال التعليم الشعبي. من الممتع أن نشير هنا إلى أنه بالرغم من تجذّر الطريقة السنوسية بالتشوُّف لم تخلُ من بعض التشابهات الخارجية مع الوهابية، خصوصاً ما يتعلق بنزوعها العسكري وزهدها الأخلاقي وروح التضحية لديها.

ربما أعطت مختلف الأخويات ـ أو على الأقل ما تبقى منها ـ في حالات أخرى، الانطباع بأن الصوفية في وقتنا الحاضر تعاني انحداراً لا شفاء منه. هذا هو رأي الأوساط الإصلاحية المسلمة ورأي بعض المستشرقين أيضاً. ربما كانت الحقيقة مختلفة عن ذلك إلى حد ما، دون أن نذكر أن التفسّخ حطّ من قدر **طرقٍ** عديدة، خاصة تلك التي قدمت الكثير من التنازلات للميول الشعبية أو السياسية، لكننا لا نعدم الدلائل التي تشير إلى أن **التشوّف** لايزال حياً وفي حالة حسنة.

على اعتبار أن الصوفية، كما ذكرنا، جانب داخلي من الإسلام، وبالتالي باطنية، فإنها قد توجد في الفكر دون أن تُظهر نفسها على

السطح بأي شكل في الواقع، حضورها ملحوظ في معظم البلدان الإسلامية، حيث تعلن شخصيات بارزة كثيرة انتسابها إلى هذه أو تلك من **الطرق** التي يتّبعون تعاليمها وممارساتها الروحية كي يعمّقوا إيمانهم. ورغم أن هذه الطرق تمثل شكلاً من الروحانية غريباً كلياً، وحتى معاكساً، للنظرة الحديثة، من الشائع أن ترى خريجي التعليم الغربي يعودون إليها كي يخلّصوا أذهانهم من التشوش الفكري للعالم الحديث. وحين نأخذ باعتبارنا الكتب التي ظهرت في هذا الموضوع، يمكننا الجزم أن الصوفية لم تخسر بَعْدُ منابع البَرَكة - الأثر الروحي - التي وجّهتها إلى الأمام منذ أيامها الباكرة، وأن تأثيرها يبقى ملمحاً هاماً من ملامح إسلام اليوم.

يبدو، فوق ذلك، أن الأسياد الصوفيين لم يختفوا تماماً من المجتمع الإسلامي الحالي، ولازالوا يجمعون حولهم الأرواح التي تتوق إلى التقرّب من الله عبر الطريق الصوفي. أحد أبرز هؤلاء الصوفيين، في القرن العشرين، الشيخ الجزائري **أحمد العلوي** من مستغانمي، الذي، بتأثيره وقدسيته، جمع حوله الكثير من الأتباع ليس فقط من شمال أفريقيا، بل من بلدان أفريقية أخرى ومن الشرق الأوسط أيضاً. إنه يضاهي، من زوايا مختلفة، الصوفيين الكبار من الفترة الكلاسيكية الذين ذكرنا أسماء بعضهم في هذا الكتاب. وقد ظل حتى وفاته عام ١٩٣٤ برهاناً حياً على خلود هذا التقليد الروحي.

حتى في وقتنا الحاضر، لم تَنْمَحِ تماماً من الإسلام السلالات الصوفية العريقة، الأسياد وحتى الأولياء أحياناً يواصلون العمل. مع ذلك، هناك من الأسباب، في عالم يصبح علمانياً أكثر فأكثر، ما يجعلهم ينؤون بأنفسهم عن العلنية أكثر من أي وقت سابق.

كما هو الحال منذ زمن الحسن البصري، تتطلب التعاليم الصوفية من

الأتباع موقفاً عاماً من الفقر الروحي: الانصراف عن العالم، الذي يشكل الشرط الضروري للانخراط الحقيقي في الطريقة. وهذا يتطلب القيام بتمارين روحية إضافة إلى القيام بكل فروض الدين على الوجه الأكمل، وقد يُختزل في كلمة واحدة تشير إلى أحد الجوانب الأساسية من الإسلام، كلمة كررنا إيرادها في الصفحات السابقة: **الذِكر**.

بطريقة ما، كل ممارسة من ممارسات الإسلام هي ذِكر (كما أشرنا سابقاً)، ذلك أن شعائر الإسلام بالتحديد تتضمن تأكيداً دائماً وتذكيراً بوحدانية الله، الشيء الذي تفعله أشكال الحياة الإسلامية التقليدية، التي تتمركز دائماً على الفكرة الأساسية: العودة إلى الواحد. لكن الصوفية جعلت من الذكر ممارسةً منهجية ونوعية تقوم على إشارات متعددة من القرآن. بالنتيجة، تقود الطريقة الصوفية أتباعها إلى أن يركّزوا حياتهم على الابتهال لله وتكرار اسمه. يمكن ممارسة الذكر في حالة انعزال وصمت، أو يمكن القيام به جماعياً في المجالس حيث يرافق التكرار الايقاعي لاسم الله، أو لتعابير مقدسة أخرى مثل الشهادة، بالنقر على الطبل لدى بعض الطرق. وأحياناً يترافق الذكر بحركات جسدية موافقة، وأشكال من الرقص المقدس، الذي يقدم «الدراويش الروميون(*) الدائرون حول أنفسهم» النموذج الأشهر منه: ويقود الذكر أحياناً إلى حالات من النشوة لا تروق للمتشددين من أنصار الدين الإسلامي التقليدي.

تنطوي الطريقة الصوفية أيضاً على تمارين للتأمل (الفكر) تهدف إلى النفاذ إلى عمق حقيقة الإسلام. إنها تتطلّب سلوكاً لا عيب فيه، وممارسة

(*) ـ نسبة إلى جلال الدين الرومي. م.

الفضائل على نحو دقيق، والنضال الدائم ضد الميول المشتِّتة للروح التي تعيق الفقير عن التقدم نحو المركز الوحيد.

يعلِّم الدين التقليدي أن طبيعة المسلم تنطوي على ثلاثة عناصر أساسية: الإسلام، أي الخضوع والاستسلام لإرادة الله؛ والإيمان، أي الإيمان بالله ورسوله؛ والإحسان، أي «الفضيلة» أو «الإخلاص» أو «التفوُّق». يؤكد أسياد التصوف دائماً وخاصة على الإحسان، فهو باعتقادهم مطابق للتشوّف.

ثمة حديث للرسول يقدم هذا التحديد: «الإحسان أن تعبد اللّه كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك». تُلخّص هذه الصياغة مجمل طريق الصوفيين، التي هي «العبادة» بأعمق معاني الكلمة، وإدراك الوجود الكلي لله.

رغم أن الصوفية طريق جوّاني (باطن) للمستغرقين في التأمل أساساً، إلا أن تأثيرها يطال المستوى الخارجي (الجهير) من الفعل في هذا العالم؛ ومن شأن تجاهل هذه الحقيقة أن يقودنا إلى العجز عن فهم المغزى الحقيقي للكثير من الأحداث الاجتماعية والسياسية في تاريخ الإسلام. لقد أثارت الصوفية، حتى في القرن العشرين، حركات تدافع عن الإسلام التقليدي ضد غزو الحداثة الأوربية. في تركيا، على سبيل المثال، قيل إن الطرق كانت عصب المقاومة ضد مشروع أتاتورك في العَلمنة. إذا استثنينا الأخويات المتفسخة وخصوصاً تلك التي ساومت مع القوى الاستعمارية، يبدو واضحاً أن الصوفية لاتزال أحد مصادر إلهام ما يصنّفه الغرب، بشيء من التحريض، ظهور «الأصولية الإسلامية».

وجد التيار «الأصولي»، الذي يمكن أن يتطور أيضاً بمعزل عن أي

تأثير تمارسه الطرق، أهم تعبير له في حركة الإخوان المسلمين، التي أسسها في القاهرة حسن البنّا عام ١٩٢٨ . رغم وقوع الحركة ضحيةَ إجراءات قمعية، فإنها تمارس نفوذاً قوياً في مصر، وقد كسبت الكثير من الأنصار ليس في العالم العربي فقط بل وفي باكستان وأندونيسيا أيضاً. تدل هذه الحركة على التعلق الشعبي بالإسلام التقليدي وعلى مقاومة التأثيرات «التقدمية» و«اليسارية» من الغرب أو من الدول «الاشتراكية»، وكل قوى العلمنة والحداثة الأخرى.

لا يمكن استخدام مفاهيم مثل «يسار» و«يمين» في العالم الإسلامي دون توضيح. فرغم لقب «الاشتراكي» الذي يلحق بأسماء بعض الحكومات أو السياسات المتَّبعة، يبقى المجتمع الإسلامي، البعيد جداً عن العلمنة قياساً بالغرب، مقاوماً للايديولوجيات الحداثية، ولآلاف الأشكال الأخرى من النشاطات المخرّبة والمضادة للتقليد. إن إخلاص المجتمع الإسلامي لممارسة الدين يتفارق، على نحو صارخ، عن الأزمة التي تهز المسيحية اليوم (كما لاتزال الفرق الهرطقية محدودة)(*)، ولم تبالِ الجموع الشعبية برسل التقدم (أكانت ماركسية أم سواها) ولابفكرةِ عصر ذهبي جديد تخلقه أعمال الإنسان بعيداً عن تدخل السماء. هذه الجموع تفضل

(*) أشهر الطوائف التي ظهرت حديثاً هي الأحمدية، التي أسسها في نهاية القرن التاسع عشر مسلم هندي يدعى ميراز أحمد من قاديان في البنجاب. دعا إلى أفكار عِدّة لا يقبلها الدين التقليدي، تتعلق بمهمة الرسول، والادّعاء أن المهدي سيكون ظهوراً متواقتاً للمسيح ومحمد وتجسُّداً جديداً من كريشنا. الجماعة الأحمدية، التي يمارس أفرادها الطقوس الإسلامية، تقوم بعملية تبشيرية لا يستهان بها في الغرب، حيث افتتحوا العديد من المساجد. أما البهائية فهي دين جديد أسسه فارسيون من أصل إسلامي، لكنه لا يشترك مع الإسلام في شيء.

سماع الشيوخ والأئمة يعظون بالعودة إلى إسلام الخلفاء الأوائل. بالطبع يرحب المسلمون بأشكال التقدم التي تحسن شروط حياتهم المادية، وتعيد لهم كبرياءهم أمام الأمم الأخرى، لكنهم لا يعطون هذه الفكرة نفس الدلالات التي تحملها في الغرب(*).

في كل صلاة يتوجه المسلم إلى ربه بالقول «مالك يوم الدين». هذه العبارة التي تتردد دائماً بين جماعة المؤمنين، تدعم وعياً بالنهاية المحتومة التي تنتظر الناس جميعاً، والتي أكد عليها الإسلام أيّما تأكيد منذ الأيام الأولى من الوحي. فهي تذكّر المسلمين دائماً بنسبية هذا العالم، وتحضّهم بالتالي على أن لا يقصروا آمالهم عليه، فتخلق رؤيةً للمستقبل مختلفة في العمق عن رؤية النزعة التقدميّة العلمانية التي يتمسك بها الغربي المعاصر تحت تأثير الفلسفات التطورية التي ظهرت في القرن التاسع عشر، والتي لاتزال تشكل الأساس الأيديولوجي لحضارته. بهذا المعنى، كما في غيره لا يمكن للمسلم أن يكون «معاصراً» حقاً وتماماً مثل نظيره الغربي؛ وإذا أصبح كذلك فإنه يكفّ عن كونه مسلماً.

يترافق الوعي بقيام الساعة مع روايات أُخروية يجب ذكرها ولو

(*) كانت النسخة الفرنسية لهذا الكتاب تحت الطباعة عندما اندلعت ثورة الإمام الخميني في إيران. وبالتالي لم يكن بالإمكان الإشارة إليها، رغم أن الكاتب تناولها بعمق في عملين لاحقين «الإسلام بين التقليد والثورة» ١٩٨٧ و «يقظة الإسلام» ١٩٨٨ . في تحليله للطبيعة المتناقضة لتعبير «الثورة الإسلامية»، الذي أدانه الكثير من العلماء التقليديين، يكشف الكاتب التأثير القوي للايديولوجيات الغربية على كتابات مروّجي ما يسمى «الإسلام الثوري». وعلى اعتبار أنه قضى بعض الوقت في إيران عام ١٩٨٤ ، فإنه يعتقد أن النظام الذي انبثق عن ثورة ١٩٧٩ لا يمثل إعادة إحياء للدين بل إفساداً هائلاً للإيمان الإسلامي (الترجمة الإنكليزية).

بإيجاز، وإن لم تكن قرآنية، بادئين بأكثرها شؤماً: مخلوق شرير، دجّال، كذّاب وجاحد يشابه المسيح الدجّال في سفر الرؤيا، سيأتي ويبذر الفساد والفوضى والخلاف في العالم. ويقال إنه سيقوم بكل أشكال المعجزات، وإن الناس الذين سيتبعونه سيتحولون إلى الوثنية ويرتكبون كل أشكال الشرور والفسق.

الكثير من المسلمين الذين يقبلون هذا الاعتقاد، يعتقدون أن الدجّال لن يكون فرداً مشخصاً، بل بالأحرى إشارة إلى الحضارة الحديثة كما هي الآن، فهي مع الإبداعات التكنولوجية التي تشبه المعجزات، تحرف الإنسان عن طريق الحقيقة والخلاص، بوعودها الزائفة وروحها المثيرة للانقسام. وفي اعتقاد آخر، يشير الدجّال إلى شخص سيظهر كتجسيد لكل خِداع وتمرد العالم في مراحله الأخيرة، ويشرف على ذروة خراب العالم.

مهما يكن من أمر، ستقع الأرض فريسة قوى شريرة ونكبات منفلتة من عقالها على يد قطعان كافرة (ياجوج وماجوج، ورد ذكرهما في القرآن مرتين). لكن سيظهر قائد هو المهدي، يهزم أعداء الله ويهيء من أجل عودة المسيح، ابن مريم، بعد ذلك سيعملان كلاهما على تسيّيد دين الرسول محمد، وسيدخلان فيه، مؤسسين بذلك حكم الحقيقة والعدل.

حالات هذه الأحداث الأخيرة للعالم، كما تدّعيها الروايات الأُخروية، موصوفة بعدة صيغ تختلف فيما بينها كثيراً أو قليلاً، وليس من الواجب الإيمان بأي منها. المهم في الأمر هو أن المسلمين يتفقون على عودة النظام الإلهي وسيادة الإسلام المنتصر ـ مفهوماً بأرقى المعاني ـ تماماً

كما هم موقنون بيوم القيامة، نهاية الزمن وخاتمة الأشياء وظهور السيادة المطلقة لله.

والله أعلم.

# نصوص أصلية

## الصُّور

﴿وما قَدَروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه * سبحانه وتعالى عما يشركون﴾

﴿ونُفخَ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾

﴿وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجاء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون﴾

﴿ووُفّيت كلُّ نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾

الزمر (٦٧ - ٧٠).

## حب الله

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشدّ حباً لله، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب﴾ البقرة (١٦٥)

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ آل عمران (٣١)

## حلاوة الإيمان

قال رسول اللّه (عليه الصلاة والسلام): «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان:

- أن يكون اللّه ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما
- وأن يحبّ المرءَ لا يحبّه إلّا للّه
- وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النّار».

## تعاليم الخلفاء الراشدين

* أبو بكر:

- اطلبوا الموت واستعدوا له قدر استطاعتكم. وستبدو لكم الحياة مثل هدية كريمة.

- يظهر سلوك أفضل عباد الله بأربع طرق: يسعد حين يتوب آثم، ويتضرع إلى الله كي يغفر لأولئك الذين لا يحلمون حتى بالتوبة، ويصلي إلى الله لمساعدة العاثرين ويساعد كل من يفعل الخير.

* عمر بن الخطاب:

- احذروا الثروة التي تجعل الحياة سهلةً عليكم كما تحذرون عصيان الله. في نظري، يجب الخوف من الثراء لأنه قد يقود المرء إلى التهلكة دون أن يشعر عبر كل الإغواءات الممكنة.

* عثمان ابن عفان:

- في كل شيء جانب من المحنة، كل حظ جيد يستجر معه نقيضه. والمحنة التي جاءت مع هذا الدين، الأسى الذي يرافق هذه الهبة التي يمثلها

الدين لنا، هي النقاد والمفترون. إنهم يُظهرون لك ما تريد أن تراه بالضبط، ويخفون عنك النواقص التي يزعجك التفكير بها.

* علي بن أبي طالب:

ـ نفوسكم ثمينة ولايعادلها إلا الجنة، لذلك لا تبيعوا نفوسكم إلا بذلك الثمن.

ـ كل من يصارع ضد الحقيقة سرعان ما ستصرعه.

## تجربة الطريقة الصوفية

لقد أدركت بوضوح أن الصوفيين كانوا أصحاب تجارب حقيقية ولم يكونوا رجال كلام، وأنني ارتقيت قدر الاستطاعة بطريق الإدراك الذهني. لم يكن بي حاجةٌ إلى التعليم الشفهي والدراسة لكي يلامسني الهُدى، كنت فقط بحاجةٍ إلى التجربة المباشرة والمضيّ قدماً في الطريق الصوفي.

الآن ومن خلال العلوم التي تمرّست فيها والدروب التي عبرتها في تحققي من العلوم العقلية والقلبية، وصلتُ إلى إيمان أكيد بالله والرسول واليوم الآخر. تجذّرتْ هذه المبادئ الأساسية الثلاث في كياني، ليس من خلال البراهين الجدالية، بل من خلال التفكّر في مختلف القضايا والمصادفات والتجارب التي لا يمكن الاستفاضة في قولها.

بات واضحاً لي أن لا أمل يرتجى من هذا العالم إلا عبر حياة تأخذ الله في الحسبان وعبر التخلّي عن الرغبة العقيمة. اتضح لي أيضاً أن مفتاح هذا كله هو قَطْع القلب عن الأشياء الدنيوية بترك قَصْرِ الخداع والعودة إلى بيت الخلود، والمضيّ نحو الله بكل الحماس. واتضح أيضاً أن هذا لا يمكن إلا بإدارة الظهر للثروة والمنصب والهرب من كل الأشراك التي تستهلك الزمن.

ثم أمعنت النظر في ظروف حياتي، وتأكدت أنني مقيدٌ بدَغَلٍ حقيقي من الارتباطات. كما أمعنت النظر في نشاطاتي، التي كان أفضلها تعليمي ووعظي، وتبيّنتُ أنني كنت أتعامل فيها مع علوم ثانوية لا طائل منها في بلوغ الحياة الخالدة.

استمرت هذه الحالة لدي زهاء عشر سنوات، وخلال فترات العزلة هذه، انكشفت لي أشياء لا تحصى ولايمكن إدراكها بالعقل. سوف أكثر الكلام حول ذلك فربما كان فيه مساعدة للآخرين: علِمتُ علمَ اليقين أن الصوفيين هم الذين يسيرون على طريق الله؛ حياتهم هي الأفضل، ونهجهم هو الأعمق، وطبيعتهم هي الأنقى.

إذن كيف يمكن وصف الطريقة الصوفية عموماً؟ النقاء، الذي هو شرطها الأول، يعني نقاء القلب تماماً إلا من الله؛ المفتاح إليها، الذي يتوافق مع الفاتحة في الصلاة، هو غوص القلب تماماً في ذكر الله؛ وغايتها هي الفناء التام في الله.

الغزالي ـ المنقذ من الضلال.

# الفهرس

# صدر عن دار الرأي

| العنوان | المؤلف |
| --- | --- |
| اغتيال الحريري | يورغن كاين كولبل |
| أين يكمن الخطأ؟ صدام الإسلام والحداثة في الشرق الأوسط | برنارد لويس |
| تجربة الإدارة المحلية | د. محمد توفيق الأسد |
| التحقيق الكامل (عن هجمات ٩/١١) | تقرير لجنة الكونغرس |
| حياتي (مذكرات) | بيل كلنتون |
| الدولة والمجتمع المدني | شاهر أحمد نصر |
| رجل من الداخل (رواية) | غراهام غرين |
| سيناريو وحوار (قصص) | عدنان حبال |
| صانعو الإرهاب | يحيى أحمد عيسى |
| الإدارة في سورية | د. محمد توفيق الأسد |
| القديس فرانسيس (رواية) | نيكولاس كازانتزاكي |
| ما يدعو للهذيان (قصص) | فرحان مطر |
| المخدوعة (رواية) | توماس مان |
| مصر وكنعان وإسرائيل | دونالد ب. ردفورد |
| من نحن (التحديات التي تواجه الهوية الاميركية) | صموئيل هنتنغتون |

أين تكمن أزمة الحضارة الغربية؟ وهل من سبيل للخروج بهذه الحضارة من أزمتها؟ وما هو هذا السبيل إن وُجِد؟ أسئلة تقليدية كثيراً ما تكررت وكثيراً ما قُدِّمتْ عليها الإجابات.

يصدر كتاب «اكتشاف الإسلام» عن هذه الإشكالية الكبرى، ولكنَّ الجديد فيه هو تناول الإسلام كدينٍ وكحضارةٍ بمنهج المستكشف الذي يعيد صياغة ما اكتشفه جزءاً جزءاً ويقدمه في شمولية ناضجة تكتملُ في ذهن القارئ كلما تقدّم أكثر في سياق هذه الدراسة، التي ترى في فكرة «الواحدية» لبّ الحضارة الإسلامية، وتتلمس انعكاسات هذه الفكرة في كل جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والعمرانية والفنية والثقافية... إلخ، لتصل إلى النتيجة المضمرة في كل ثنايا الكتاب والتي نترك للقار يقطفها في ختام قراءته له.






دار الرأي للنشر والتوزيع
www.daralrai.net